ذات اشتهاء

إبراهيم حامد

ذات اشتهاء
إبراهيم حامد
الغلاف: عبير محمد
رقم الإيداع :٠
ترقيم دولي:٠

دار فصلة للنشر و التوزيع
٥٧ حي الزهور الزقازيق - مصر
٠٠٢٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
fasla.pub@gmail.com
www.fasla.org

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه
الطبعه الأولي يناير ٢٠١٦

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

ذات اشتهاء

إبراهيم حامد

دار فصلة للنشر و التوزيع

إهداء

إلي الجميع إلا أنت
لم أعتد أن أقيدكِ بشيء حتى وإن كان إهداءً

بعيدا جدا عن الرواية

تريدُ لشيء أن ينتهي ... تعلق به كثيرًا

العلامه الأولي

دفنتك في صدري حتي لا تموت ليس لتقتلني أنا من الداخل .
ماذا لو أننا الآن معا . . ؟
ما كنت لأفض بكورة هذه الورقة أبدا . . !!
فراقك جعلني أجمل . . فراقك كان أجمل عملية تجميل حدثت لقلمي ، ما كنت لأعرف أن النزيف الذي قد يهدد أرواحنا قد يكون ممرا سريا لطرد كل السموم التي سكنت فينا لأعوام إلا من خلالك .
دعيني أكتبك ريثما تموتين قهرا . . ريثما تضغطين علي كيبورد ذاكرتك في كل مرة علي زر إعادة تنشيط الوجع .
أكتبك الآن وأنا أعلم أن نسخة ما قد تأتيك عن طريق الخطأ . . أكتبك وأنا أعلم أن غايتي في جرح نفسي صارت أكبر من أن أرى نفسي مهزوما ، وأن الجرح الذي يتسع لي أجمل من السعادة التي تضيق عليّ ، أكتبك الآن وأنا أراهن بالسبعين نبضة بالدقيقة أنها لن تكون لك أبدا . . أبدا .
دعينا نتفق لأول مرة أن جرحا إضافيا سيمرنا سيجعلنا نتذكر كل ما عشناه معا . . شريطة ألا نتمناه .
ماذا عساني أن أقول . . ؟
أأقول أحبك . . وأنا أعلم أنك خذلتني ، وأنك هشمتني ، شوهتني ، أدخلتني في عالم أجمل ما فيه هو طعم البكاء بعدما ما منحتك كل مفاتيح قلبي لتنوء بالحسناوات ، منحتك قلبا لا شية فيه لأراه الآن بلا وجه . .
كان لدي رغبة أن أعيش معك عمرا كاملا ، لا أن نقضى أياما معدودات ، هل تصدقين أنني لا ادري ما القاسم المشترك بيننا حتى نقع في شراك الحب

، لكنني يومها كنت أشم رائحة روحك ، أقول لك:
- هل تصدقين أن يمارس رجلا الحب بأنفه . . ؟!
- بعرف أنك مجنون بتسويها . . !!
- لك الله يلعن جنوني ، ما عاد فيني عقل أتحمل أكتر من هيك . .
- شو مو قادر تتحمل . . ؟!
- لك ما بقدر أتحمل عطرك . . عم يخليني أتخيلك بحضني
تصرين أن عشق الفتاة يزداد كلما زاد لهفة الرجل عليها ، أنانية الرجل بامتلاكها ، غيرته الحادة ، مجون قلبه و جنونه .
كنت أعرف أن في معصمك ساعة لا تراها سوى عيني تعرف كل ما يناسبك ، فكل ما يناسب الفتاة موقوت بقلبها ، كنت أنا المجنون طول الوقت الغيور دائما الأناني في اقتناءك وكنتِ أنتي المجنونة معي . . تقولين لي :
- هلاء بدي أعقد شعري برقبتك مشان ما تتركني أبدا . .
- بس أنا ما بتحمل نعومته ، شعرك بيدبحني . .
- كلشي فيك دابحني . .
- شوفي حبيبتي كلمتين ورد غطاهن
- احكي . . !!
- بحبك أنا
- لك أوقعت قلبي . . أنا كمان بحبك كتير . .
هل تريدين أقناعي أنكِ بخير الآن . . ؟!
كاذبة ، أنتِ لستِ بخير . . !
كان هذا المنشور الأول الذي جعلني أكتب عنكِ ، شعرت وقتها بأنكِ مثلي لستِ بخير ، وكيف نكون بخير ونحن لا معا ، لم أختر يوما فراقا ولا مخالبه

التي تجتر قلبي ، حتي علقتْ فتاة غريبة :
- كن بخير . . لا تكن بارا للألم . . أرتكب عقوقا بحق وجعك .
أضفت يائسا :
- ومن بوسعه أن يعصي رفيقه ، المرء علي حزن خليله . .
- من قال أن الألم صديقا . . أهجره .
- سيتبعني . . !!
- أخطأت ، هو أعمى . . الألم يخطئنا دائما المشكلة أننا لا نخطئه .
ظللنا هكذا حتى احتدم الحوار بيننا وتعاركت مشاعرنا الأمر الذي دفعني أن أجعل الحديث أكثر خصوصية مما دفعني أن أرسل لها في شباك رسائلها الخاصة :
- لم يكن جرحا عاديا ، كأن موتا في زيّ جرح . . !
- يوجد جراح مميتة ، كما يوجد موت جريح .
أن تحكي وجعك لغريب معناه أنه قد طال أعماقك وما عاد بوسعك حمله أكثر ، ذهبت لها بكل أزرار حزني حتى تفكها من علي صدري ، شجعتني طريقتها في الاستمرار والرقص بكل رشاقة علي سلم ذاكرتي في محاولة أن يلفظ الحزن أنفاسه الأخيرة فيا ، قلت لها :
- فيكي تسمعيني شوي . . !!
- عم بسمعك خيو ، أحكي .
دائما ما هنالك وجعا يكفي لأن تكره حياتك بسببه ، إلي أن يستمر هذا الوجع ، عليك أن تموت بكل ما عشت به .
كان جبر كسري وقتها في أن أُكسر مرة أخرى ، كأنني كنت ذاك الشخص الذي يلدغ من ذات الجحر ألف مرة حتى اكتفيت ، وقفت صارخا في

وجهي :
- يا غبي . . أمرآه تتركك عند أول منعطف عاطفي قادرة علي تزوير كل أشارات الحب بأحمر شفتيها . .
لم تكن تلك المعضلة التي نهشت أوراق قلبي ، وهشمت سطوره الرتيبة حتى يستقيم اعوجاجه وانتهى . . كانت المشكلة أعمق من أن تلحظها قزحية العين ، أو أن يشعر بفحيحها زنابق القلب ، لقد قضمت الجزء المضيء في حياتي دون أدنى شعور بالحب ، استأصلتني . . !!
- يعني ما بدك تحكي شوي مفصل ، بلا ألغاز . . بدي أفهم هاد القصة . .
- شوفي . .
جمعتنا الحياة دون أن تمنحنا حكاية حقيقية ، كانت لحظاتنا كلها مشبوهة ، بدأنا الأمر معا ، ربما كانت طريقتنا في استلامنا أمام مشاعرنا أضمر تلك اللذة التي قد تصاحب سكان الحب في هذا التوقيت ، لم نحتاج لأي وسيلة ملفقة لنحيك بها تلك العلاقة أبدا . .
يومها كنت نائما حين أستفز غطيطي أمي وهي تزجرني بأن أستيقظ ، لم أكن مدركا أن صحوتي الآن هو بوابة عبوري إلي عالم لطالما خشيت أن أجربه ، عالم لم أقوى يوما إلا أن أراقبه بعيون الروائيين والشعراء أو من خلال ما أسطره من توهمي أحيانا . .
هيا أفق يا عزيزي فلقد وجدت عروسك . . قالتها أمي ، لأستقبلها بقلب مغمص وناعس . .
لا يجب أحيانا أن نؤسس أي علاقة دون أن نتحقق من رصيد التأهب لها . .
صحوت من غفلتي إلي منام بامتداد وجعي ، أخذتني بعدها أمي دون أدني

مقاومة مني إلي إحدى صديقاتها في الحي المجاور ، لفقت هي وصديقتها لقاءا بانت نيته المبيتة عند دخولي ، كان بهو المنزل مجهزا بالكامل لاستقبالنا ، الأرضية ممشطه ، حتي حديقة البيت كانت مهذبة بما يليق بهذا الربيع ، وقتها ازداد رذاذ تعرقي دون أي تدخل لأصابع الطقس ولجت أنا وأمي إلي الصالة التي زينتها الكثير من مهندمات الزينة . .

أكثر ما يزداد ترددك به وأنت في أي مكان غريب سؤال يخلب هاجسك دائما ، كيف سأخرج من هذا المكان بأقل الخسائر . . ؟!! ، لكن صياغة هذا السؤال لم تكن كافية حتي أقبع في بقعة التخمين ، لم يشفيني وقتها سوى تكشير القدر عن نيته بكل ضراوة ، إذ فجاءة اختفى كل من هم حولي ، حتي أمي ، لم تلح علي رغبة بقائها بعد ما رأيته وقتذاك . .

- أكيد بدك تسأليني شو الي ظهر قدامي وقتها . . ؟!

- هاد ما بدا سؤال ، أكيد هي . . !!

- لا . . مو هي .

لا يمكن أن أعد جلالها أمامي ظهورا ، لكن جنوح مشاعري وقتها جعلني أقتنع أن أختها الكبرى هي عروسي ، بالمناسبة أختها كانت متزوجة إلا أن ملامحها لا تزال تحتفظ بملوحة البكورة . .

- بعدين شو صار . . ؟

بعد كلمات قليلة دارت بيني وبين أختها كانت أكثرها ترحيبا بي خرجت هي محتشمة بخجلها ، نظراتها لم تكن مستقرة أبدا إلي أي شيء ، كانت متلعثمة الخطى ، مرتدية صورة غير تلك التي صنعها فضولي ، لم تكن جميلة فقط ، بل كانت فاتنة ، قاتلة ، مباغتة للحد الذي قد تقتلك بخفة ، أخذت أستجدي بكل أنفاسي ، بما تبقي من حواسي ، بالأشياء من حولي ،

بكل كوارث هذا الكون ، بحزني ، بأوجاعي ، بنشوتي ، ما أُقتلني أمامك .
آمنت يومها بمقولة جدي لي : لا بد للرجل أن يستعيد حقه في الجمال من خلال زوجته . كن هنئا يا جدي ، فحفيدك سيستعيد حق العائلة كلها لأجيال .
تبتلت أمامي دون أن تنبس بكلمة ، حتى جسدها كان أبكما ، لقد جمدته بعناية حياءها ، وربما لفرط توترها ، أما عن نزعتي الملحة للحديث معها قد انتقمت من نبي الصمت بيننا ، رفعت صوتي بغاية جلب انتباهها :
- شو أسم القمر . . ؟
اشتعلت وجنتيها احمرار وهي تنزوي بكل ما تملكه الأريكة من حجم ، حاولت أن أحطم تلك الجسور المنيعة التي تحيل بيننا في أول جلسه ، وجهت وقتها الكلام لأختها :
- أختك علي وضع الصامت ، فيكي تخليها عام شوي . .
ابتسمت وقتها ، حتى أنها رفعت رمشيها نحوي وأنا أبكي ثروتي ، نظرة منها تكفي أن أصبح عاري عن كلل الحياة ، فما بالي لو تكلمت .
- بصراحة خيو بحياتي ما شفت هيك حب ، بدك تقنعني أنك حبيتها من أول نظرة . .
- ليش ما تقولي قتلني من أول نظرة . .
أن تنظر لك أمرآه جميلة فأنت مقبل علي اعتذار واجب في حق الحياة ، يجب أن تقول بعدها : أنا علي قيدها ما استطعت . . ، لم يكن ثمة من قرار أنشبه وأنا مشتبه بأنني أصبحت عاشق بسبايا أمرآه ، كنت أشعر دائما أنني أعرفها من قبل لا أدرى أي ألفة تلك التي زيفت بداخلي الذاكرة لأشعر بذلك ، المهم أن لقاءنا الأول لم يعطني حقي في الاطمئنان بشعورها

نحوي . .
- المهم ما قولتلي ، عرفت أسمها . . ؟!!
كان أسمها كرمه ، لتضيف لي الحياة أنها كانت سخية عليا باستنطاق حروفها ، أمي هي من أخبرتني باسمها ، فكرمه لم يسعفها يومها قلبها للإفصاح عنه كنت أشعر نحوها أنها لا تملك شيئا ضد الحب لكنها تخشاه ، مثلما كنت أخشاه قبلها .
حياتي قبلها كانت مشوشة جدا ، فوضوية للحد الذي قد تكفر بأي تناسق ، طالب في أخر سنه جامعية من كلية الصحافة يؤمن بحقه في التقاط الواقع ورصفه في نموذج مقالي ، ليس ثمة ما يجعله يحقق النظام في حياته غير مواعيد المحاضرات التي كنت افلت معظمها وأنا أشرع إلي أحدى المقاهي القريبة لأنغمس بكل نزعتي الجنونية إلي صنع قصص لن تحدث أبدا ، كانت رغبتي في الإيغال بقلبي علي تضاريس ورقية في أوج حماستها ، إذ لا يوجد ما نخاف منه ونحن نقامر بمشاعرنا في سبيل الخلاص .
قناعتي أن الحب أكبر كذبة قد صدقها العالم اندثرت تماما وأنا منغمس بالتفكير بها بعد لقاءنا الأول ، حتى أمي أقبلت ليلتها إلي غرفتي وأنا منمق الخاطر وسارح البال بابتسامتها الحانية لتسألني :
- شو رأيك بكرمه يا آسر . . ؟!
- لك بدي أعرف شو رأي كرمه فيني . . ، قلتها بتعطش .
أومأت أمي بابتسامة عنوانها مغاير عن تلك التي أطلقتها قبل قليل ، ومضت إلي غرفتها ، قالت قبل أن تخرج بشكل كامل :
- بكره بتتصل فيك . . .
اتصلت كرمه مثلما نبأتني أمي ، كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها

صوتها ، كأنني كنت أرتشفه بقلبي ، صوتها وضعني في مواجهة الحب مباشرة ، والتعلق بكل براثين الاشتياق في بحته ، كان في صوتها لحنا خاص و سوناتا موسيقية لا يمكن احتوائها في نوتات هذا الكون ، دار الحوار بيننا دون كلفة ، حتي اختيارها وقت الاتصال كان موفقا ، بيدا أن أي وقت كانت ستختاره كان سيناسبني تماما . .

اتصلت بي قرابة السابعة مساءا . . بالرغم من أنني لم أكن علي علم بأي رقم ستتلفن منه إلا أن انتظاري وضعني أمامها مباشرة ، وكأنني كنت أترصد هذه المكالمة منذ وقت ليس أبدا بالقليل .

تراني كنت أنتظر صوتك منذ سنوات من الدقائق .

رحت أردد بداخل " عليك أن تبطل مفعول القلق القاطن بصوتها وأن تنغب قلبها حتى النهم " .

" كيفك . . ؟! " . . قالتها بصوت خافت لا يكاد يسمع ، صمتي أكد لها أنني لم أسمع سؤالها بالشكل الكافي حتي أجيب .

عادت تكرر سؤالها مجددا . . "كيفك . . ؟! " . . مؤكد أن سكوتي هذه المرة سيغتال رغبتها في إعادة السؤال علي في مرته الثالثة ، لكنني حينها لم أتعمد الصمت ، فلقد أخرسني حسها وأن أتمعن دورها الذي استخضبني ونقلني حيث جنة من قبس صوتها .

- " أنا بخير يا كرمه . . " قلتها مشدوها . . حتى أستمر بيننا الحديث دقائقه العشرة ونحن نحاول الاتزان بعناية مبتدئ ليس ثمة ما يفكر فيه وقتها سوى أن يقطع أكبر مسافة تمكنه من الاطمئنان .

أستمر الحديث بيننا حتى الرمق الذي مكن فيا ضراوتها ، بدأت وقتها بالاعتياد علي نبرة إجاباتي ونحن نتداول أسئلة ساذجة .

- كم عمرك . . ؟!
- عمرا واحدا كان يكفيني قبلك . . !
- وهل جئتك لأصنع منك رجل متعدد الأعمار . . ؟
- بل جئتني لتجعلي مني في عمر واحد عدة رجال .
- كأنني أراك رجلا يعشق البطولة .
- بل أنا عاشق للجنون

شعوري أن كرمه تقاسمت معي بذرة الحب بدأ يتفاقم كلما زادنا معا ، هذا أنني كنت أخشى أن يجمعنا الحب فقط ، فجدي كان يقول لي دائما :

- الحب وطن مستهدف . . . !!

لم يكبر الحب بعد ليصل بجنونه بيننا أن يصبح وطنا ، لكنني كنت أراه يشع للحد الذي يصححننا ، للحد الذي يمكننا من التجديف علي شق ذاكره ، منحني الحب وقتها الخصاصة إليها ، لكنني كنت أخشى أن تشح يوما عني بقلبها بحجة لا تغفر لها أثر تلك الخطيئة .

- صحيح . . ما حدا لفت انتباهك قبل كرمه . . ؟!
- فيكي تقولي قبل كرمه ما كان عندي انتباه . .

سرت في جسدي رغبة في تقبيل خشب الأريكة التي كنت أركن إليها في لقاءها الأول حتي لا تسبق عيني حنينها قبل قلبي ، أيامي الأولى أنا وكرمه كانت بمثابة الهاوية والهوية ، كان شأننا هو تحقيق تفاصيل مشتركة لا تزورها الأحلام ، أو اعتماد حقنا الكامل في إنكار كل ما عشناه قبل لقائنا ، إذ يجب أن يكون وصولنا إلي النقطة التي نبتغيها في سلام ، فالحب يجعلنا دائما أن نؤمن بأشياء ما كانت لتحدث ، هو أن نفعل أشياء يصعب تصديقها .

- يعني ما قولتلي . . شو الي عجبك ب كرمه ؟
أحببتها لأنها كانت سري في كل شيء ، طريقتي في الحياة ، دائما ما نسيء للحب ونحن نرسم أشخاص قد يقتحمون حياتنا عن طريق الخطأ ، أو ربما لا نكترث للأفعال المتأخرة التي تشوه كل جينات الحب خاصة في فترة البداية ، إلا أنها كانت ذكية بقلبها ، تصنع الحيز الذي كنت أريده ، تتفوه بالكلمات التي كنت أنتظرها ، حركاتها التي تثرثر بها أمامي كانت متقنة ، كانت لغتها هي لغتي ، قلبها كان قلبي ، كانت أنا .
الحنين شعور متأخر ، شعور نصل إليه عند الاحتياج فقط . .
هل تعلمين أن الشعور بالحنين هو إحدى وجوه الشعور بالحزن ، لكن حزني وقتها لم يكن يلائمني فقط ، فلقد ازدوج بداخلي وقتذاك الإحساس بنعومة دمعي وحرارته ، حنيني إلي شيء معي لا أجده .
كانت طاقتي وقتها حبيسة كلما استقراءت جنونا وعدتها أن ارتكبه في لقاءنا القادم ، كان حبها للمفاجئة كبير جدا ، حتى أن وعدي بمفاجئة لها كان أحدى منغصات فضولها ، تقول لي حين أتعمد مشاكسة فضولها :
- إشعال الفضول أشد من القتل .
كان جاديا من سلسلة اللقاءات التي حدثت بيننا أن يتم في عجالة خطبتني منها إلا أن هذا تعرقل قليلا. .
- مو فهمانه شو تقصد . . يعني هي رفضت الأمر . . ؟
ليس من هذا المنطلق وإنما كانت مشتعلة بالتفكير القاتم فيما سيأتي ، لم تمد للحياة ساعديها وتنتظر اعترافات القدر وإنما صرت علي فرض حياة بخيالات ذاعنة ، ربما عدم استسلامها لي بالكامل نصب لها فخ الخوف و زرعها في هذا الحقل برغم أنني كنت أقول لها دائما :

- عندما يتعلق الأمر بالمشاعر أستسلم هكذا تنجو .
توجب عليا في هذه الفترة أن ارث مشاعرها جنونا حتي ادوزن المشاعر المتراخية بيننا ، تسألني :
- ماذا لو تخليت عني يوما .
- سأقتلك وقتها ؛ لأنكِ سمحتِ لي بذلك .
الأخطر من ألا تفهم ذكاء المرأة هو أن تشكك في فهمها ، كنت مدرك تماما وقتها ما ترمي إليه ، ربما خوفها من الوحدة التي قد تباغتها في أي وقت وهي علي قيدي وربما حرصها علي تأدية دورها في الأسرة علي أكمل وجه.
فقد كانت تنتمي لأسرة بسيطة تقطن في حارة مجاورة لنهر العاصي بحماة ، وكان والدها ريفيا يسكن علي جبينه خطوط الكفاح و والدتها مدرسة متقاعدة وجدت في إدارة بيتها ما يتخطى ملامح الطباشير علي أصابعها ، وعلي حسب ما قالته أمي لي أنها غادرت تلك المهنة تلبية لرغبة زوجها الذي أصر علي ذلك بعد زواجهما بفترة قصيرة ، فقد كانت كارولين هي الابنة البكر للسيد نزار والسيدة رفيدة ، وجاءت الأميرة كرمه بعدها بست سنوات ولم تنجب السيدة رفيدة غير تلك الفتاتين دون سبب يذكر .
بعدما بلغت كارولين سن الرابعة عشر بدأ المتهافتين للزواج بالتقدم إليها إلا أن السيد نزار أصر علي رفض كل المتقدمين من أجل إعلاء طموحها الدراسي ، كانت بغيته في أن يرى بناته علي مستوى فائق من العلم .
كبرت كارولين وكبر معها طموحها وحلمها وألأمها ، حيث توفي السيد نزار وأجتر معه سعادة البيت آنذاك وقتها دأبت السيدة رفيدة بالعمل من أجل الفتاتين ، حيث رأت في نضارتهما شبابها المقيت وعزمت علي بلوغ كل ما تمنّته يوما من أجلهما ، كانت كارولين وقتذاك ابنة العشرين عام حين عزم

السيد قاسم علي قطف الأمنية التي عج الكثيرون من قبله إليها وتسنت له عروسا بزي غاطس البياض ، لم يكن ثمة ما ينتظرونه وقتها غير روح موارية تقف قبالة أحلامهم وتربت بحنو علي أوجاعهم الغريرة .

حتي صادقت أمي وقتها السيدة رفيدة التي اشتهرت في وقت ما في أنحاء الحي بأنها ماهرة في إعداد الزبد الدسم.

كانت معاناة تلك السيدة هي من جعلت من سيدات الحي و الأحياء المجاورة يحجون إليها دون توقف ، ليس ذلك فقط وإنما طريقتها الصادقة في إسدال عباءة الحديث جعلت من مجالستها شيء شهيا ، وطرب روحها حقق لها رصيدا ناضجا من عبث الحب في قلوب من يعرفونها ، حتي تعمقت أواصر علاقتها بأمي وزاد الأمر حماسة إعجاب أمي الشديد بـ كرمه مما دفعها أن تصل بي للنقطة التي خضتها معها .

قلت وأنا أستأذن إغلاق نافذة الحديث معها اليوم :

- صحيح . . لم أعرف أسمك بعد ، أوجاعي الغريبة لم تواتي لي أن أسألك عنه . . ؟!

قرأت رسالتي وصنت دقيقة ثم أجابت بعدها :

- لم تعرفني الأسماء إلا على الشخصيات المغشوشة ، لم أعرف فيها سوى طريقة في استنساخ ألما في الذاكرة. . !

ضحكت مع نفسي ضحكه نصفها تهكم ونصفها الأخر فضول :

- ربما كذلك . . إلي اللقاء يا ميمي . .

- من ميمي . . ؟!

- دلع مجهولة . .

العلامه الثانية

- ماذا لو أننا لم نلتقي ؟
- لقايضت حرفين اللام والميم بحرف السين وأعدت صياغة الجملة .
"كان يكفيني عمرا واحدا لأجدك ، وألف عمر حتي لا أضيعك " قلتها لتناقضني :
- كان يكفيني امتلاءا واحدا لأجدك ، وموتا حتي لا أضيعك .
- حتما كنت أعني أنكي عمري
- حتما كنت أعني أنك أبديتي
- مشاكسة
- بل عاشقة . .
ألستِ من قلتِ لي مرة : لو أننا نتذكر كل شيء لما احتجنا أن نستعرض ألامنا و لا أفرحنا . . قلت لكي ذات الكلام بطريقة أخرى : " نحن نعيش علي ما ننساه " .
لازلت لم أفهم يوما ما يعنيه جدي حين أنكشف بما عاشه وقتما قال باقتضاب
- إن أهديت أحدا قلبك تكون بذلك منحته الطريقة الأسهل لقتلك . .
توجهت إلي دفتري بعدما انهمكت في تلك المحادثة مع الغريبة ، لطالما كانت الورقة فتاتي ، ألغي بياضها وأن أركن الحروف بفوضى أوجاعي بشغب يدي ، بعبث .
يحلني اشتهاء غريب عندما أراقص حزني المتشبث بعريها ، أتذكرني شرسا وأنا أكتب ، مازوشيا وساديا وأنا أعتليها دون رأفة بهوامشها ، أفعل ما يحلو لي بجسدها بأطرافها . . ، أسكب فحولتي فيها بعنف ، حتى وأنا ألاطفها ،

أحاول أن أصل بها للأورجازم الذي أجدك من خلاله .
كاتب لا يعرف ما تريده منه الورقة يجب عليه أن يترك كل أسباب الكتابة ، الأجمل أن تقرأها فارغة ، هي تحمل الكثير أيضا ، الأوراق الفارغة تحمل قصصا لم تكتب بعد ، ذكريات لم تتنصل من أصحابها .
ثمانية وعشرون حرف ويد واحدة ووجع بحجم الكتابة ماذا تبقي علي ارتكاب مثل تلك الجريمة ، كل الآثار خافتة خلف قفازات مضرجة بدماء الحنين .
كانت تلك المرة الأولى التي أقول لنفسي فيها : ما دمت محطما أكتب ، ما دمت لا تملك العاطفة التي أغلقتها علي وجعك أستمر ، ستصادف كلمات تنطلي بخديعتها عليك لا تتوقف عن ذلك .
رأيت في الكتابة شيء يشبهك ، كل منكما أضيع بقلبي معه ، ماذا عليّ أن أكتب إن كانت كل الأشياء من حولي متواطئة معكِ حتى النهاية؟! .
أهتزمت سطورا من روحي لك علي صدر الورقة ، كتبت بعمر حبي لكِ ، ووضعت إمضاء الحنين أسفله :
ظننت أنني انتهيت منك في الوداع الأخير ، أدرك أنني كم أكون مخطئا فقط وأنا أكتب .
يتضاعف الصوت في رأسي فقط ، حين يجب علي أن أجعل الكلمات المدفونة في جوف الورقة تنوب عن صوتي ، حين يصبح الهدوء المشتعل في صوان أذني أكثر إزعاجا من ضوضاء الواقع ، ماذا تستطيع أن تفعله الكلمات بي أكثر من أن تذكرني بك . . ؟!
جست الحروف مخالبها في رأسي حتى ناف فيا مخضعكِ ، وجثمتِ فوق ذاكرتي كلها تتكفلين بوجع أمتد حتى أخر حرف.

علي هذا الحال أصر دائما أن تغادرني كلمات ابتلعتها في عمق ذاكرتي توشي دائما بأشلائي المثقوبة و بصهريج رمادي الذي ما أنفك غباره أن يهدأ حتى يصرعني النوم ، فيقع خدي علي ما كتبته فيك كما كان يقع علي فخذك في وقت مضى ، أليس من الموجع أن تحاصرني حتى أمارس ما اعتدناه معا بشكل غير كامل .

أيقظتني أمي بعد مساء أمضيته مع ذنوبي وشياطيني و أقلامي ودفاتري وأوجاعي وأثاركِ الطاعنة في ذاكرتي ، وكلماتي التي انتعلت وجهي كما يترأي لي بمرآتي كل صباح معول عليك ، ربما هي طريقتك أن تلقي علي تحيتك الصباحية وأنت تصب تجاعيد مؤقتة علي خدي .

لم تضف شيئا تلك الجدران الغريبة الآن سوى الخراب الذي يختلس فغر ذاكرتي ، فلقد انجلت السنوات الأربعة الأخيرة دون أن تخلصني من الكائن الهش الذي بداخلي ، ذلك أن الحياة التي تجعلك تنفعل بالكتابة قد تكون خبئت من أجلك جراحا ليست بوسع أي أبجدية أن تخثرها ، حين يشاهد قلبك فوضى حقيقية ، ويشتعل ذهنك بأنين من سبقوك إلي الموت ، وتحتفظ جيوبك الأنفية برائحة البارود و غبار غادرٍ ، أن تصبح عاجزا علي صد الريح في صدرك تكون بذلك قد عززت مكان خاليا في مساحة لا تعرفها ، كان للأمر دوي الموت حين انبلج في قلبي ، لم يحدث الأمر فجأة وإنما طفرة حين دارت الثورة ببراثينها وقسمت ظهر البلاد لزمرتين ، كانت الحرب وقتها هي قرارهما الأخير إذ كان من المؤكد أن نلتمس أي قرار وقتها خلاها .

حتى وأنا أتصور كل هذه المدة التي قضيتها أنا وعائلتي في خضم الموت ، وأنا أراه مندلع بنا أكثر من سكراته التي تترأى في ملامح الأطفال ويرقص في أعينهم شقاء مبكر ، ويملئ أحلامهم دخان أكثر كثافة من أعمارهم .

كان يكفينا نصف ساعة فقط لنطب بها متاعنا ونترك خلفنا وطنا كاملا ، ليس من حقي الآن أن أكون مواطنا سينادونني بكل ساسة وهم يضمنون الأسى الذي يغمرني بتلك الكلمة يا "نازح" . .

لن تجدي تلك الجدران المخاطة نفعا مع أول شتاء يأتي سخيا بنا ، فحينما تصبح لاجئا ستدرك جيدا أن الخيام خائنة ، ستدفع بك أمام المأساة لتتجلد بتلك المعونات الكاذبة التي لا تكاد تشفي غليون الشتاء في صدرك ، ستقرر وقتها أن تبتعد أكثر . . أقله ستصل إلي موت أكثر رحمة بك من هذا التمرد الذي يدب بقلقه في قلوب الكثيرين ممن طعنوا هذا الوطن بمجده .

كنا وقتها علي حدود لبنان حيث سقط أكثر من نصف عائلتي وهما يناجون أرضا لا تكاد تتقن سوى موتهم فقط ، عند أخر المسافة كنت أنا وأمي الناجيين الوحيدين من تلك المراسم التي حبكت أكفان عائلتي ونقشت أرواحهم الضائعة في حبات الرمال .

مازلت أتذكر الموت كما أتذكرك . .

نسيت آخر مرة استيقظت فيها بحلمي الفتي ، كأنها محاولتي ألا تظل مأساتي مرتبطة بك وبالوطن التي صارت أكبر من تلقيها بقلب شره بالحزن ، نفضت من علي وجهي ما تبقي من حروف تجهش بك وأنا أضرب الماء بقوة غيابك ، وارتديت سترتي التي لم يعد بإمكانها أن تتحمل شهرا إضافيا ، ونزلت إلي عملي المؤقت والمقيت .

أتوسل بالمقالات التي أكتبها شيئا يبقيني أنا وأمي يوما إضافيا في هذه البلد الغريب ، فجميع رؤساء التحرير هنا لا ينظرون إلي كلماتك بقدر ما ينظرون إلي اسمك ، مما يضطرني إلي بيعها في مزاد بخس ومن ثم أتجه نحو جريدة أخرى أعمل بها ساعي جرائد ، أحمل أخبار العالم علي ساعدي ، هذا

العالم الذي لم يحملني يوما سوى خبرا يملئ بفراغه الساحر دموعنا بسكينة حروف ، صورا تحمل في جعبتها موت مستنسخ ، وعنوان سميك ليس سوى إعلان يصفنا في أدغال الغربة .

عدت في ذلك اليوم عند المغيب بنصف حظي الذي أعتدت أن أضيعه دوما في زخم خيباتي ، خائر الإرادة ، شاحب الروح ، يتماهى في خاطري رسالة طويلة أود أن تصل إليك لا أن تظل حروفها تهجم جمجمتي فقط ، ناولت أمي قبلة خفيفة تنعكس دائما في روحي علي هيئة أمل ، ونسجت لها كل ما حدث معي بعمر نهاري وأنا أحاول أن أجاهد ملامحي بنضارة كاذبة ، ربتت علي روحي بحنو قلبها ، وتركتني في خلوتي .

- " هل كان قدري أن أكون كاتبك فقط . . ؟ "

كتبتها كمنشور بعدما توردت في قلبي دمعة ساكتة لم أهتم وقتها أين ستقع ، حتي خطفتني تلك الغريبة وهي تنحت جملتي بطريقتها معلقة :

- ستبقي فيك مادمت تكتب . . !

ثم أدبرت حديثها في رسائلنا :

- ستبقى فيك بوحك . .

اشتهيت أن تكن لي دائما روحي وليس بوحي . . " علقت في نفسي "

حييتها ، ومن ثم قلت :

- مازالت الأسماء تزعجك . . ؟

أعربت عن ضحكه خفيفة بحرف الهاء ومن ثم قالت :

- والأماكن أيضا و الكلمات و كل شيء ؟

- من أين أنتي . . ؟

- أنا من كل شيء يسكنني ، ننتمي دائما إلي الأشياء التي تسكننا وليست

التي نسكنها .
- كم عمرك . . ؟
- يقدر بعمر لوحة أعجبتني و ربما جملة أحببتها ، أو مقطوعة موسيقية التصقت بقلبي ، أعمارنا رهن ما نشتهي .
- هل علي أن أخبرك الآن أنكِ شهية . . ؟!
- أخشى أن أكون كتِفا تعدو إليها فقط ذات اشتهاء .
توقفتُ دقيقة عن مراسلتها حتى كتبت علي حائطي الإلكتروني:
" هل مازلت كما كنت تقول لي دائما أنني أحق الناس بحسن حبك "
علقت في نافذة المحادثة بيننا . .
- إلي هذا الحد تعلقت بها .
- كذلك الأشياء التي نفقدها دون أن يعزينا فيها أحد تصبح موجعه . . موجعه حد التعلق .
- كيف تقاوم هذا الوجع بمفردك . ؟
- كأن أتعمد كسر رأس قلمي كل مره و أعود لبرده ليقابل ذات المصير . . تابعت بعدها . .
- ألن تضجري لو أكملت لكِ الحكاية . . ؟
- تفضل . .
تشدقت للحب في تلك الفترة خاصة وأن كرمه وافقت علي خطبتنا ولكن بعدما أنهي دراستي الجامعية التي لم يتبقي منها وقتذاك سوى ستة أشهر وفي بداية التحاقها بالجامعة أيضا ، استنتجت منها محاولة تنكرية لمنح كلانا فترة "تحاشي" كما دعوتها ، لن يكون الوقت طويلا علي بلوغها أبدا ، فعندما كنت أفكر في الطريقة التقليدية التي جمعتنا وكيف اندلع بيننا

الحب فجاءه ، وكيف قمرت قلبي دون هوادة ، حتى في المشكلات التي كانت تشب بيننا ، كنا نقاومها بحب ، ليس ضروريا أبدا التنكيل بكل ما عشناه من حب عند أول عملية اغتيال نتعرض إليها حتى ولو بلغت بيننا المشكلات عتيا . .

وصلنا لحب بعيد في فترة قريبة ، كأنني كنت أسابق معها الضوء إلي مواقع النجوم ، وألاحق الطيف الذي يتسرب من أنفاسها بمشافهة لطيفة ، كان يأتيني اشتهاء عنيف وهي معي تقرصني لهفتي تلك وأنا أمد يدي نحو أصابعها لأول مرة وهي تثمل بانسجام ، أهمس لها بلطف :

- لم تعد أصابعك عزباء .

- ولا قلبي . . فلقد انتهت وحدتي عند هذا الحد .

- أتشعرين بي . ؟

- لا أشعر إلا بك .

- أتسمحين لي . .

- بماذا . . ؟!

- أن أقضم قطعة من السحاب الآن . .

- ماذا تقصد ؟

رفعت يدها وقتها نحو فمي ، وحاولت . . .

" ليس ضروريا تلك التفاصيل يمكنك أن تتغاضي عنها " . . قاطعتني الغريبة بجملتها تلك . .

تابعت دون أن أعيرها أي انتباه . .

. . . . . وحاولت لثمها بشفتي . .

كنت أشعر باشتهاء غريب كلما أستقراءت في عينيها دوار البحر وهي

تنتفض بانتشاء الحب أو كلما بدأ اضطراب تنهدها في صدري وهي تدفعني بحيائها بعيدا . . قريبا . .
كانت محاولتي لتعريف الجمال عندها كانزلاق شال رأسها عن شهد شعرها أو تكشف طرف ثوبها عن يديها الثلجية ، أو أن أشم رائحتها و أتعقب أنوثتها بتفاصيل سخية أو وهي تضحك وأنا أقول لها :
- دوست دارم يا عزيزتي
- دوست من ، مو سمعانه منيح . .
- دوست دارم يعني بحبك بالفارسي يا عبيطة . .
تقول وهي تضحك :
- وأنا كمان دوسته . .
سنوات عشناها في أيام قليلة ، اكتشفنا فيها كل شيء لأول مرة ، لم أكن أدري أنه لأمر سيء أن أكتشف مع غائبة كل شيء ، سيصبح عند افتقادها كل شيء مميت ، سيكون مخفقا اكتنافها من كل جهة وكل شيء فيها يحاصرني ، انتهيت آنذاك من دراستي وأصبحت أمام مهد حقيقي وأنا أتجاوز طور عشته لشهور لانتظار هذه اللحظة بالذات حتى أعقل بنصر يدها اليمنى بخاتمي ، ذلك الشعور الذي يرتق فينا السعادة كأن تخرج من دهليز ضيق حيث فضاء شاسع الصدر لا يضيق عليك بملصقاته ولا أغراضه الخاصة .

وعدتها في هذا اليوم أن أكتب لها لأول مرة ، أن أكتب فيها ، أن أكتب عنها ، أن أكتب لأجلها ، أن أرتص خلف حروفي وأرتدي عباءة من ثمانية وعشرين حرفا وأقدم نفسي في ورقة ، و أضع بديلا عني ضمير المتكلم ، وتنوب عنها كاف المخاطبة ، ربما هي محاولتي للاتصال بحياة أخرى ، حياة ورقية وأنا أغدق كلمات من رائحتها العالقة بجوفي .

ما أحتاجه الآن ليس الحب ، إنما الإغراء . .
هي طريقة الكاتب في امتزاز ما يحتاجه من أجل اشتهاءه ، احتجت لحروف وسيمة ذات نسق يليق بها . . كتبت لها وقتها :
احتجت لكِ كثيرا وأنا أكتب . .
احتجت لجديلتك التي تخرج من تحت شالك دون قصد ، احتجت لبياض الترقوة الذي يتكشف لي كلما ألتفتي خجلا ، احتجت لأن أشتهيكِ أكثر .

دعيني الآن أخبركِ أنني لست بحاجة إلي الكلمات وأنا أكتب بل أحتاجك أنتي ، أحتاج أن أكتب أحبكِ علي هيئة قبلة ، أو أحتاجكِ بالعناق ، أعتقد أن ذلك التجسيد للكلمات أظنه سيكون مختلفا ، لن نحتاج أن نتدرب كثيرا على هذا يا عذبتي ، فكل هذه الأشياء عندما تواتينا دون سيطرة تخرج بشكل أفضل .
لم أكن قبلك يا حبيبتي لأخبركِ عني . . ، فكل شيء حدث معي كان معك ، وكل شيء لم يحدث معي سأرتكبه معك ، كأننا انعطفنا بذاكرة واحده علي الأشياء .
تعرفين يا عذبتي لماذا أحببتك أنا . . ؟ ، حتي يعجز العالم أن يجيب علي أسئلتي كـ ‘‘من يستطيع أن يتكفل بقلبي غيرك . . ؟’’ .
أعلم أنني لست علي قدر كافٍ من الفصاحة لأكتب لكِ ، لكنني علي قدر كافٍ من الحب لأفعل ذلك . .
‘‘ ليتها معك الآن . . ‘‘ قاطعتني الغريبة وأنا لازلت مستمر في استطراد ما كتبته وقتها لكرمه كأنني أكتب هذه الرسالة في مرتها الأولى ، لم تجف وطئتها إلي الآن ولا حتى رائحة الأحلام الملتصقة بها ، لا أذكر وقتها أنني استخدمت ممحاتي أو شاطب الحبر وأنا أكتبها ، كذلك الأشياء التي تخرج

بصدق ، ربما لأنها انغالت من جوف قلبي إليها لكن الفارق الوحيد بين الرسالتين أن ضمير المتألم ينوب عني الآن ، ويحل محلها كاف المخاطئة .
أكملت له رسالتي حتى وصلت إلي . .
. . . حتى أتي من خلفكِ فجاءة ، و أصرخ في أذنك ، فترتعدين خوفا وتختبئين في فغر صدري ، تقبضين أصابع كفتيكِ وتضربين صدري باللكمات وأنتي تقولين : أخفتني . . أخفتني ، فأطمئنكِ وأنا أضمك أكثر ، كوني وقتها صبورة فأنا سأكرر هذا كثيرا .
وأنتي في بيتي ، لن يكون لهذا الشال الذي يقمر نصف رأسك نفعا ، وليس ضروريا أن ترتدي كل هذه الثياب بالطريقة التي أراكِ بها الآن ، كوني جاهزة أن تكون خفيفة دائما ، كوني جاهزة أن تشمين رائحة نسائية عالقة فوق قميصي وأن تشاهدين أرقام مجهولة في دليل هاتفي ، ستجدين معي دائما سيدة مزورة أحتاجها فقط لأختبر غيرتك بها .
إلي أن يأتي اليوم الذي تشتهي فيه شيئا في غير موسمه ، فأركض كمجنون لاهثا نحو بغيتك ، تقولين لي لا أدرى لما اشتهيته الآن ، وكأنكِ تحاولين إخفاء طقوس الحمل عني ، مهما يكن ستفضحك معدتك المكورة أمامي ، وسأدنو منها لأجس حياة جنينا وأن أصرخ سأكون أبـًا .
علينا وقتها أن نتشاجر كثيرا ونحن نلقف من بين أسماء عده اسمًا له ، حتى نستقر في النهاية علي أسم من رغبتكِ أنتي وأنا أقول لك :
- بعد كل هذا الشبه الذي يجمعكِ به ، كيف لا أجعلكِ تختارين أسمًا له.
ربما جمعتنا الحياة ذات اشتهاء ، كنت أشعر أن أولئك الذين تجمعهم الحياة لحظة اشتهاء قادرين علي البقاء كثيرا أرجو ألا أكون مخطئا في ذلك .

مدينٌ أنا لكِ بكتابة هذه الرسالة ، مدينٌ لكِ بالأحلام التي تدفأت بها وأنا أكتبها ، مدينٌ لكِ وأنا أفضح قدرنا معا وأوشي بما سأرتكبه معكِ قبل أن نصل إليه بأجنحة مهيضة . .

أشتهيكِ . . !

- كتبت لها هذا كله وكأنني تعمدت أن أملئها بكل شئ . .

- لِما ذيلتها بكلمة أشتهيكِ ؟

- نحن دائما نحب ما نشتهي.

- بل نشتهى ما نحب . .

بغروب أخر يوم من امتحاناتي الجامعية كنت قد أعدت نفسي بشكل كافٍ لهذا المشوار ، كنت ككاتب أحكم إغلاق أحلامه كما يفعل مع رواياته ، مضيت دون بلادة أهتزج المسافات وهي تنقشع من أمام خاطري وأهفو بحلمي بعيدا.

عندما وصلت لبيتها كانت طقوس الاحتفال مزدانة بها ، كل شيء في تلك الليلة كان مضيئا بشكل مضاعف ، جلست علي الأريكة بجوار والداي أترقب ظهورها المباغت لي ، حتى طلت أمام غرفة الصالون ، تتقدم ببطيء ، كانت جميلة بلا رحمة ، ارتدت يومها فستانا بلون شفتيها ، ورائحتها حميمية لوزية عتيقة شممتها بروحي .

ووقفت من متكئي أستقبلها ، لحظات الإحراج تلك . . جميلة لا تنسى .

" صمتٌ في نفسي قليلا ، كلما تذكرت تلك اللحظة أقول لنفسي : فليشهد الزمان أنني أحببتها كثيرا "، تابعت بعدها كلامي :

لا أدري لماذا أصابتني وقتها رغبة سرية بتقبيلها لكنني كبحت تلك الرغبة وأنا أردد داخلي : الجميع حولك يا مجنون ، كف عن تلك الأفكار . . ،

تقدمت نحوها حتى بلغت رأسها ووجدتني دون دراية أستكين بشفتي علي جبينها ، وهي تشتعل خجلا أمام الجميع ، حقيقة أجن الأشياء تلك التي نرتكبها أمام الجميع ، همست في أذنها بعدها :

- حتى تعلمين إنني عاشق للجنون وليس البطولة .

تداركت وقتها الموقف وأنا أبتسم ، وولج بعدها الكثيرون ممن هم أقاربها وأقاربي بالمباركة لنا ، تلك هي الطقوس التي ندركها دائما في مثل تلك المناسبات واقبل والداي نحونا وهي ينعشون قلبي بأحضانهم السخية وقبلاتهم الحانية ودعواتهم الدافئة وقدمتُ لها وقتها خاتم الخطوبة وأعلنتها أمام الجميع عروسا لي ، واندلعت الزغاريد تملئ فحو المكان .

رتب لنا القدر لقاءا بل احتفالا كاملا ، أجمل ما كان فيه وقتها سعادتها التي لم يكن ليحدها شيء ، تعرفت يومها علي عديلي السيد قاسم ، كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها ، باركني بكلمات قليلة ومن ثم عاد بجوار كارولين ولاحظت قبيل انتهاء هذا الاحتفاء بمغادرته لأمر اضطراري حين جاء معتذرا للسيدة رفيدة بشأن رحيله .

تركتها جالسة علي الأريكة المخضبة بروعتها وانتفضت بقدمين مهزوزتين أمامها مباشرة وكأنني أستدعيها لأمر مهم ، أوكئتْ لي نظرتها بخجل ، لم يكفني وقتها تلك النزعة الجنونية التي تغتال داخلي ، اجتهدت بمسك يدها اليمنى وشذبها نحوي مباشرة ، وقفتْ من فورها أمامي ، تأملتها للحظات ومن ثم تهورنا بالخروج في فضاء البيت حيث لا احد وهي تقول لي :

- إلي أين تصحبني يا مجنون ؟

- المجانين لا تجيب إجابات مفهومة . . تعالي فحسب.

وصلت بها إلي حيث ساقني قلبي ، هي ذي واقفة أمامي بكل فضولها

وقلبها وأطوارها ، تنشقتُ مبتسما ثم قلتُ لها :
- ماذا عساني أن أفعل الآن . . ؟
رفعت حاجبيها بحنق ثم قالت :
- تصور أنني أخذك من بين كل هؤلاء الناس واركض بك إلي خارج البيت دون أن أفسر سبب ذلك ثم أقف بك ها هنا وأقول لك ماذا عساني أن أفعل الآن ، ماذا سيكون رد فعلك ؟
- سأقترب وقتها منكِ كثيرا . . كثيرا ، ودون أن أنبس بكلمة سأخرسك بقبلة
- أ تنتظر مني أن أفعل هذا الآن ؟
- بل انتظري مني أن أفعلها معكِ الآن .
طوقتها دون وعي بين ذراعي ، ودون أن أحتاج أن يرشدني شيء نحو شفتيها أجزت لشفتي الالتصاق بها حد الرغبة ، لم اسعي وقتها لشيء سوى الاقتراب منها خطوة قُبلة .
ينتهي التقبيل حينما يشعر أحد منا أن الأخر قد سبقه بنشوة ، لكننا كنا متزامنين ، لم يكن لينتهي الأمر بيننا بهذه الطريقة أبدا ، كان تناغما حقيقيا ، تماثلا حد التطابق ، ضممتها وأنا أشتعل برغبة الاندماج بها ، لم أرى أن التقبيل مراهنة على الاختباء عن الجميع وإنما هو رغبة علي أن يصبح اللقاء مسافة اشتهاء .
كانت تلك القبلة هي الهدنة الوحيدة التي أعلنتها علي أوجاعي في وجه الحياة منذ أن بدأت أكتب ، كأننا نكتب حين نمتلئ بالذنوب .
استفاقت وقتها من غيبوبة القبلة وهي تقول لي :
- لم تكتب هذه في رسالتك لي ، كان عليّ أن أقرأها أولا .
- يبدو انكِ لا تجيدين غير القراءة .

دنت وقتها مني وهي تتجشم عناء القبلة لتسألني :
- ماذا عساك أن تفعل الآن ؟
كان في سؤالها دعوة غير معلنة بأن تجتمع دمائنا في قبلة أخرى .

العلامه الثالثة

السلام علي الأنبياء الذين يولدون في قلبي . .
أعددتك في قلبي بدماء طاهرة ، أعددتكِ إرث لا ينبغي لقبائل مشاعري التخلي عنه مهما كلفني ذلك عمري ، كأن يصل بي الأمر كبوذي يرى روعة الأشياء في لحاء قلبك أو كمجوسي أحترف التعري بروحه أمام نار اشتياقك ، أعددتك واحة أغدق بها في فوضى صحرائي ، لا أن تتركِ في قلبي الصحراء وترحلين .
لم أعرف يوما لماذا تصلين دائما بي إلي الجنون ، وأن الجنون الذي يدفعني للكتابة قادر علي أن يجمعنا في شق كلمة ، لم يكن مفهوم التخلي ملتصقا أبدا بمعنى الجنون إذ ربما تصبح أشد حالات التمسك جنونا كما أعيشها الآن ، وأن الحكمة التي تنضج فينا كلما فقدنا شيئا لم تأتني بعدك حتى الآن ، كأنني لم أفقدك بعد ، علني لا أجد في فراقك شيء غير أنني فيه أشتاقك أكثر .
لن أستطيع أن أجد فتاة تأتيني بوجهك وطباعك وجنونك ، لم يتماهى في خاطري يوما قدرا ينغلق علي حب غيرك ، تسللتِ إلي قلبي وصككتِ كل منافذي بحيث تصنعين تاريخ لا يتسع لسواكِ ، تقهقرتي سنين بعدما رقد بداخلي تمردك البلشفيّ .
ماذا تصنعين برجلٍ وصل حتى نهاية شفتيكِ ، توغل فيكِ حد الدوخة ، تماس بجسدك في كل ضمة ، أحَبكِ حتى الهلاك . . ؟!
كم اشتهيت أن تقتليني رغبة ، أن تسمحين بيننا باختلاط الأنفاس ، أن تراوديني عن نفسي ، وتغلقين كل أبواب الكون ، و تفسحين بمليء أنفاسك

دخولي ، أن تقفين علي حافة أوراقي وتطالبيني بكل لذة أن أغافل الكلمات وأحاصرك بنص يترائي فيه الكثير من صفاتك ، لكن هذا كله لم يحدث ، لم يحدث بيننا يوما أن جئتني مرتعشة من أثر الشوق لأخمد لكِ كل ما بكِ بذراعين وشفة ، لا أن أطالبكِ بهمها ، من متى كانت تلك الأشياء تُطلب ، لم يكن من شأني أبدا أن أنتظركِ في الحياة وأنا أعلم أن قدومك في هذا الوقت من الكتابة أمر غير منطقي ، لكنني بوسعي أن أنتزع هذه الورقة وأكمشها ليكن حضورك بارزا أمام إلهامي .

إن عطب العشاق دائما يتمثل في عدم تمييزهم بين الشيء الحقيقي والوهمي ، وربما ليست تلك اللعنة التي تصيب العشاق فحسب بل الحالمون أيضا ، تجرهم أمالهم دائما إلي النقطة التي يتاحكون فيها بألأمهم ، وتصبح كل خطواتهم العالقة في المسافات محض أثار واهية ابتلعتها رمال الظروف ، ليس من شأننا أبدا التحكم بالقدر ولا أن نغير ما به لكنه لا بأس أن نجمله ، أن نلائمه بما يتناسب معنا ، لا أن نفر منه بل نواجهه بأحلامنا الواعدة .

"متى سأنتهي منكِ . . ؟"

ربما لهذا السبب أكتب الآن ، علني أنفض طبقة الغبار الرقيقة التي غطت قلبي ، وأطرد كل ما عشته معكِ في حرف التاء وأنا ادوزن أخيرا أنها تمت ، ربما فاقتي إلي جرح كالذي أغتر داخلي يجعل من الحروف نزيف لا كلمات ، وأن النزيف الذي يتدفق خارجنا يصبح أقل موتا من الذي يصب داخلنا ، إذ يمكننا تدارك خطورته بأوراق جافة لم تحتسي ملوحة الليالي ولا وجع الوسادات.

ليس سهلا أبدا أن أقف علي ضفة من أوجاعي وأترك كل المنحدرات الجاثمة حولي تتلقفني وأجرب الانزلاق بأحلامي لأتبع أثر ذكرياتك ، تعرفين يا

عذبتي أنني لست نادما أبدا علي حبكِ الذي مرق قلبي ، ربما بسببه الآن أصبحت رجل تمنيت أن أكونه منذ أعوام ، رجل عرف متى يتخلى عن أنفاسه ومتى يقبض علي نبضه ، رجل عرف أين يجد أحلامه ، وكيف يصنع مجده ، اتضحت لي الحياة أكثر ، ووصلت لعمر النبوة ، وعرفت كيف أكون حالما يرى حقيقة الأشياء .

لأنكِ حبيبتي أؤيد هذا التناسق المميت بين النميمة والكتابة ، وأدعي أن الكتابة نميمة صامتة ، أليس بهذا الظن مدان أنا بكِ ، وأنه عليّ أن أنتظر أن تأتيني واهية الأحلام لأكل لحمكِ ميتا ، سأنتظرك في القيامات لأعتني بلحمك الأزلي ، وأكله باشتهاء عاشق وجد فيكِ خلاصه الأخير .

اعتقدتُ بدايةً أن العمق الذي نجتازه بقبلة لا يسفر أبدا عن جرح صادق ، لم أكن اعرف أن الأشياء التي نرتكبها في الماضي ستلاحقنا في المستقبل الصغير ، وربما نحن من نلاحقها بشبهة أننا لا ننسى ، ونود لو أنها تستمر أو حتى تتكرر بذات الطريقة وذات الاشتهاء .

غير أن السعادة فعل انتهاء ، تشيء دائما بانقضاء نداءات الراحة وبداية الشقاء المزمن الذي لا يولينا أبدا ، ربما سيعتريكِ حزن قاتم حينما تعرفين أنني شاركت الجميع قصتنا ، وأن مشاركة مثل تلك الأشياء لا ينبغي أن يتم إلا بموافقة الطرفين ، لكن أين أجدكِ الآن لأخبركِ أنني صنعتُ منكِ بطلةً تتقدم في عمر الصفحات وتولد في كل حوار ، أين أجدكِ الآن لأشكو لكِ منكِ ، لا أن افشي ما صغناه لغريبة قدمت لي أذن جيدة وقلب مفتوح .

أيعجبكِ ما نحن عليه الآن ؟

منذ متى كان من شأن الآخرين التدخل فيما بيننا ؟ ، منذ أن قررتِ دون تدخلي أن تجرين خلفك ذيلا من دموعي ، دون أن يعنيكِ أمري ، ولا أن

تتمحصين حالي دونكِ ، أو تكبدين نفسكِ عناء إتباعي ولا وزر تعقبي .
لقد ساهمتِ كثيرا في بناء نصوص مازالت تتريث بداخلي ، ساهمتِ في هذا الحمل الأبدي الذي جبى على كبرياءك ، ساهمتِ في أن تفطم الكثير من الأحلام قبل أن تولد .
منذ أن كان بيننا ذاك الاشتهاء ألا يجتاحنا شيء كنا دائما معا ، ولكأنها الأشياء التي نستكين عندها تصبح فقط محطات مؤقتة ، وربما هي أقدار قصيرة ، أيكون قدري معكِ من تلك السلالة وقد قضى نحبه ، وربما فاتني أيضا حِداده وأن عليّ الآن البحث عن قدرٍ يوائمني ، قدر أبدي .
أخذت أسترسل لتك الغريبة التي تمتنع عني حتى الآن بهويتها ما عشته ، وكأنني أشتكي أنثى لأنثى ، علها تخبرني بفطرتهما المتشابهة ما دفعها لهذا الهجران الطويل ، ربما تجبرني بروحها أن أستلقي بكل ما عشته مع كرمه ، حتى إنصاتها لي يتخلله عطف أفتقره منذ اشتهاء ، في لكنتها معي وحديثنا الذي يصاغ أكثره في تفاصيل خضتها في سبيل امرأة أخرى وأنا لا أراعي أبدا أن سيدة أخرى هي من أسرد لها تلك التفاصيل ، كأنني أتعمد أحيانا هذا الغيظ ولا أتوقف في إضرام هذا الاهتزاز الموقّت . إذ ينبغي علي رجل يدرس الصحافة أن يعرف كيف يحيط الأحداث وأن يكون كتوما بقلبه ، يعرف كيف يسبق الآخرين إلي الحدث وكأنه هو من أفتعله ، ويعرف كيف يجبر بعاطفته الآخرين علي الإدلاء بقراراتهم الواعدة ، وكيف يخبئ العالم كله في عدة صفحات ، أنا الذي أستطيع أن أفعل بهذا كله إلا مع نفسي .
قلت لتلك الغريبة وأنا مفوه القلب :
- أتعرفين أن حبا بطهارة قُبلة يموت عادةً .
- لا يوجد حب يموت ، هنالك فقط حب يبتعد .

لم أدرك أبتلك الكلمات تطمئنني أم أنها تصحح الجملة فقط .
حتي تلك الغريبة غير مجبرة أبدا أن تظل هكذا تنقذ رغبتي المتكررة على الانغلاق بنفسي ، ولا أنا تملئ فراغا كبَتَ بداخلي لأعوام ، ولا أن تظل تنتظرني لأيام حتي يسنح لي الوقت عن فرصة التحدث معها من خلال تلك المحادثات الالكترونية ، ما هذا السخاء الذي تعده لي ، لا أعرف أيحدث أن تتعلق بك امرأة عرفت أن ماضيك اكتنزت به سيدة غيرها ، عرفت أن قلبك سبق وأن تربعت في أركانهِ سواها ، وأنه سبق والتقيت بها في قُبلة ، كيف لها أن تقتنع أنه سيحبها وهي ترى أشباح ذاكرته بها تطارده في كل كلمة يتلوها ، وأن صداعها الذي لم يفارق سقف أفكاره متشبث به دون رحمة .
لا أنسى وقتها الفترة التي تكدست الحياة كلها فوق رأسي حتى منعني انشغالي الكثيف من محدثاتها بعمر أسبوع ، تَعلمُ جيدا أن مثل تلك المسافات تحدث بيد الحياة دون رغبة مني ، لكنها كبّلتني بسبعة أحرف مسمومة ، هزمتني بتلك الكلمة التي انغمست في شاي الحنين حتى تهرأت روحي وهي تكتبها لي :
- فارقتني .
لم أتسم يوما بتلك الكلمة ، أنا المُفارقُ دائما ، أنا المفتقد لأحاديث كثيرة ، لأسباب جمة ، لشخوص اتسعت لقوالبهم بوابات الرحيل ، أرى أن تلك الكلمة لا تنمّ أبدا عني ، ليس ثمة من أسباب تجعلني أفارق أحد .
ربما افتقدتني للحد الذي ظنت أنه فراق مؤجل وأن حديث عابرا كالذي حدث بيننا ضاع في مسودة الطريق ، على رغم من جملتها التي اختصرتها بذكاء الشوق في كلمة واحدة أجبتها :
- سأضيف إلي قائمة الأشياء التي تزعجك فراقي أيضا ، أحجزي خانة لي

بقرب الأسماء والأماكن إذا .
عبرتْ عن ضحكة خافتة بحرف الهاء ومن ثم قالت بجديه :
- تعلقت بحكاياتك .
قرأتها للولهة الأولى "تعلقت بحياتك" حتى بردت تلك الكلمة بخاطري وأنا أتذكر كرمه وهي تقولها لي كلما قرأت عليها شيء من قصصي ، الآن وقد أصبحتِ قصة يتعلق بها الآخرون .
من بوسعه أن ينزع ذاكرة لا يصيب فحوها ندفات النسيان ولا يعرقل انسيابها رعونة الماضي .
جرى بيننا الحديث حتى انعطف كعادته إلي ما حدث بيني أنا وكرمه ، ربما تلك الأحداث التي أخبرها بها الآن هي الأشد جسارة تحديدا وأنني في هذا الوقت من القصة كان يتعقبني حنينا عصيّ ، حنينا كتلك القُبلة التي ضاجعت شفتيها ، حنينا للأحلام التي صرعتنا كثيرا ، للأحلام التي بنيناها بحماسة عاشق دون أن نضمن يوما أنها ستتحقق .
عندما تقاسمنا الشفة ذاتها و وقعنا في شراك القُبلة وامتحنا للولهة الأولى تهجم الحنين و عنف الاشتياق وسبقني قلبي الذي كان شاهدا علي تلك الرطوبة التي انغالت في روحي وعلي ذلك الجرح الذي لم يخثره الوقت إلي الآن .
تمنيت وقتها أن نستحيل فوق جسر الفنون ونشتري قفلا ضخما ونضع لنا مكانا وسط ألاف العشاق الذين قيدوا أغلالهم العاطفية في عنق قضبان هذا الجسر ومن ثم نلقي بمفتاحه ليغرق في أعماق نهر السين حتى لا نجد من يفك أسر هذا الحب ولا من يبطل مفعوله في عروقنا .
منذ متى وأنتِ لا تقرأين .

وكل حياتي أبدأها بالكتابة و أنهيها بكِ ، وكل أحلامي الهاربة مني في أرواقي لم تعد تشفي ضراوة الكلمات وكذلك أقلامي الجائعة بفقر إتيانك ، لم تجد منكِ ما يصيبها بتخمة الاشتهاء ، ولا وليمة احتوائك كما حدث بيننا ، ما احتاجه الآن هو صدفة محكمة ، صدفة بملامح المعجزة ، ما أحتاجه الآن هو لقاء لا يقل أهمية عن التصاق الكاف بالنون .

"كوني جاهزا دائما أن تجديني" . . آخر الكلمات التي همستها بالقرب من قرطها في حفلة الخطوبة ، حيث اكتنفت وقتها ابتسامة تحل عرض فمها وهي تقول لي :

- خُلقت لذلك .

نعيش نحن لنتهيأ لمثل تلك اللحظات ، نعيش لنلمس غرة خفوت السعادة ، ونراقب تدرجه الخفيف وهو ينسحب بخطوات ازدحمت بداخلنا أكثر مما يجب .

بعد ذلك الموعد بأيام بسيطة تلقيت عرضا من مجلة محلية تخدم شباب الكتّاب لتنشر بعضا من كتاباتهم بشكل أسبوعي ، لم أجد ما يمنعني من رفض مثل هذا العرض حتي وان شعرت بأنه متواضع مقارنة بأحلامي ، كان رئيس التحرير الأستاذ "محمود الأمين" مؤمن جدا بالموهبة التي تحقق مجد الكلمة ، ويدعي أن الكلمة التي تخرج حيث لا لأحد هي أصدق الكلمات ، طلب أن يقابلني وقتها لأناقش معه دوري وما عليّ أن أمارسه ، سألني يومها ما هو كاتبك المفضل ، يريد أن يعرف بإجابتي لمن أميل وبمن سأستدل أمام مأزق سميك أضل أمامه أو أفقد موازين أمر ما ، دائما نحن ما نستجدي ما نمر به من سطور دون دراية منا ونستعين علي أذى الحياة بها ، أخبرته يومها أنني لا أميز كاتب بآخر من خلال ذوقي ولا من خلال عدد

قراءه وإنما من الرزايا التي تجسد معاناته ، وأن المعاناة الحقيقية لا تقف أبدا عن حد الكلمة وإنما هي كالفيروسات تنتقل بعدوى القراءة وتستوطن قلب القارئ ليشعر بذات الألم ، لكنني حقيقة أشتهى آلام الكاتبة المغربية فاتحة مرشيد التي تطلق سراح ألامها وتكبدها في دلالات آخري ، واقتبست في حديثي مقولة لها حيث ذكرتها في روايتها لحظات لا غير " حقا ، الأشياء التي تصنع عظمة الإنسان هي نفسها التي تقبره " .

قال لي آنذاك بعد ابتسامة مشعة :

- يرتاد الناس الكتب لتخبرهم أن عليهم الحياة أكثر ، والاستمرار مهما كانت الظروف .

لم أجد ما يجعلني أنكر أن ما قاله كان حقيقة ، فأنا التواق لسماع صدى الصوت الذي يشعل خاطري كلما حضر بين يدي كتاب ، أحس وقتها أنني على موعد غرامي وأحيانا على موعد غريمي ، وأننا كثيرا نستجدي الكتب لننسى قليلا أننا لسنا بخير ، وأحيانا لنطبب جرح بجرح .

لم يكن لديه وقت ليستمر بالحديث معي طويلا ، لكنه أخبرني أنه أعتز كثيرا بالحديث معي وأنني ثري كفاية بما يجعلني كاتبا مميزا علي أعتاب المستقبل ، وأنني من الغد عليّ أن أكون جاهزا بمقال كامل لينشر تحت سقف المجلة .

خضت وقتها أول تجربة حقيقة في الكتابة ، كان حرصي أن يكون لي قامة تكمن في جذوة حروفي وأن أكون ساحرا في لضم الكلمات ورتق سجادة النص ، سهرت طيلة الليل أوانس النجوم وحدتها وذهني لا يخلو مما يتوجب عليّ كتابته ، لا أذكر ليلتها أن هدئ لي بال إلا وأنا أغلق رأس قلمي بغطاءه ، فبعد عناء كبير وتعارك شديد بيني وبين الورقة انتهى بي الحال

وأنا أعنون مقالي بـ ‘‘سيدة عتيقة تسمى الحياة’’ ، لا أذكر منه سوى أنني قلت فيه آنذاك : أجمل اللحظات تلك التي نعيشها بلا أسنان ، حين يجتمع بداخلك الشعور بالضعف والنقاء كأن تكون طفلا و هَرِما وجد في مضغ علكة أمرا مستحيلا وظل يواري الحياة في ضحكته . .

دعاني بعدها الأستاذ ‘‘محمود الأمين’’ إلي مكتبه ، لم أكن أعلم وقتها سبب ذلك ، حينما دخلت عليه همّ واقفا علي غير عادةٍ وأصر علي تقديم شرابا لي ، وبعدها قال موجها الكلام لي :

- عندما لا نملك سوى الحياة ، علينا أن نؤمن للولهة أن وجودنا أحياء بكامل قوانا هي أهم شيء بها .

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقول له :

- إن الدفء الحقيقي لا يشع من جسد المرء إلي نفسه ، بل ما يصل إلينا من أجسام أخرى حتى وإن كان دون دراية منها ، لست أعني أن امتلاك الحياة لا ينبغي منا أن نكون أقوياء ، بل أن أهم ما ينبغي الاقتناع به ونحن في مواجهة الحياة هو أن الحياة ليست حكر علي الأقوى بل الأنقى ، وحدهم الأنقياء يعشون الحياة الحقيقة ويجدون في فسحة أرواحهم أماكن إضافية لكل من هم حولهم دون أن يسببون خللا في منظومة الحياة .

طقطق الصمت مفاصله بيننا قليلا وأنا أراه يبتسم ، كان حرصي وقتها ألا أدافع عما وجدته في الحياة بقدر ما كنت أريد أن أوصله إلي أن الشعور بالآخرين هي أهم صفة يجب أن يمتاز بها المرء في الحياة ، أحيانا ينبغي أن يتخلى الواحد منا عن أناه ليجد في الآخرين حياته .

أعادني الحوار بيننا لما قرأته مرة للفيلسوف الإنجليزي فرنسيس بيكون ‘‘ إذا بدأ الإنسان بقناعات فسيصل إلي شكوك ، أما إذا بشكوك فسيصل إلي

قناعات"، إذ كان من المفرط جدا أن يقتنع بهذه الطريقة وهو يتحدث معي ولكأنها ثوابت كونية دون أن يدرك الحق في تشكيك المفاهيم التي أدركناها بمجرد التأمل والانحناء بالذهن أكثر نحو الحياة .

وقف فجاءة من مكانه وهو يصحبني إلي مكتبته العتيقة وقال لي :

- باستطاعتك أن تستعير منها ما شئت .

وقدم لي كتاب "الحياة الجديدة" للأديب التركي"أورخان باموق" محاولا أن يبرر ما قاله لي وربما لأضيف إلي نفسي بهذا الكتاب مفاهيم غابت عني حتى آنذاك .

بعد أيام قليلة ما لبثت إلا وأنا أجد أسمي يحتضن إحدى صفحات هذه المجلة ، وقتذاك فرحت كثيرا ، وهممت مهرولا أخبئ المجلة ساعيا نحو كرمه ليتلئلئ أسمي أمام عينها .

دقائق قليلة واستحلت أمام بيتها ، أدق بجنون جرس المنزل ، وأتلقاها بسحرٍ وهي تخلق ابتسامة غير عادية علي شفتي ، وتبدأ تكويني بطريقتها المتناغمة وهي تقول لي :

- حبيبي ، اشتقت لك كما لو أنك تركتني في مكان لست فيه .

- وأنا اشتقتك كما لو كان أمر لقائنا بيد الله فقط .

كان يلزمني تلك النظرة لأشعر قليلا أنني انتصرت على شيء ما ، شيء لا أجد إلا في عينيها ، انطويت عليها وأنا أهمس في أذنها قائلا :

- عندي مفاجئة لكِ ، ستمنحينني عليها قُبلة .

عضت على شفتيها باسمة ومن ثم قالت لي :

- أنسى أمر القُبلة لن تتكرر يا بهجتي ، وأخبرني ما هي المفاجئة .

- من متى كانت مفاجأتي مجانية ؟

قالت وهي تضحك بوتيرة خجولة :
- من الآن يا قرة قلبي .
ابتسمتُ كما لو أنني أتقبل الأمر وأخبرتها أن تعد ثيابها لنخرج في نزهة عاجلة لنهر العاصي ، ذهبت من فورها ودخلت إلي المنزل ، أنتظرها ريثما تنتهي من إعداد نفسها لهذا اللقاء الغرامي الشهي .
بعض المفاجئات لا تحتاج الوقت المناسب فقط ، أيضا تحتاج المكان المناسب.
كان في حدسي وقتها نصيحة لصديق مخضرم في مثل هذه الأمور التي تتعلق في العلاقات بين الرجل وفتاته ، قال لي :
" أنظر لها كثيرا . . أنظر لها حتي تسألك لماذا تنظر لي هكذا؟ ، لا تخبرها أبدا الغرض من تلك النظرة ، نظرة الحب توشي بنفسها دائما . .
قاطعته وقتها وأنا أسأله :
- وإن لم تسألني لماذا تنظر لي هكذا . . ؟
أجاب ضاحكا :
- تعال لي وقتها ، واقتلني .
يبدو واثقا من كلامه ، كان غرضه وقتها أن يخبرني أن النظرة هي السهم الأشد جسارة في مواجهة الفتاة حتي تستكين في حبك ، وأن الفتاة ترغب أن ترى نفسها متربعة في عيني من تحب .
ثمة نظرات تحمل الكثير من الحب والأسى معا . .

العلامه الرابعة

- ماذا تنتظرين من رجل لم يرى في الحياة حبا حقيقيا ؟
- انتظر أن يولد من جديد ، لعله لم يأتِ الحياة بعد .
كونّي كتبت هذه السطور يوما عليّ أن اعترف أنني كنت مخطئا ولكنني لا أعلم أين يكمن خطأي ، أيكون في حق الحب أم في حق الحياة أم في حق نفسي .
أنا آسف يا حروفي . .
آسف علي كل ما فعلته بكِ في سبيل الحياة والحب والوجود .
عليّ الاعتذار أحيانا لسيدة عتيقة تسمى "الكتابة" ، أشعر أنني لم أجلب حقها الذي يكمن داخلي إلى الآن ولا قدمت لها شيئا كالذي تقدمه من أجلي كثيرا ، أعتذر ليس تقصيرا فحسب وإنما شعورا بالذنب أيضا ، أخطأت كثيرا في حقها وأن أشيد نصا ما ، أو قصيدة لم تمنحها الحياة دورا بعد لأن تسطع في مكبرات الصوت ولا أعمدة الإنارة ، دائما ما كنت أقول لنفسي " سأظل قادرا على الحياة مادمتُ قادرا علي الكتابة ".
الآن وقد أجهزتْ عليّ الحياة بنصٍ يهزمني كلما تقدمتُ فيه من أجلكِ ، أدركت كل أطوار الحروف التي تسكنني ولازلت لم أدرك بعد أطوارك ، أعيش علي كل ما تطلبه مني الجملة من أجلك ، و أراقبني صامدا في وجه كل علامات الترقيم ، ومازلت أواصل أن أفي حقك عليّ ككاتبٍ نبغتِ فيه أكثر من نبوغ الأبجدية بقلمه ، وصعدتِ بداخله أكثر من رأسه ، ووصلتِ فيه حيث لا يمكن لأحد أن يبلغ حدك .
لأجل من نقول دائما " كل شي قسمة ونصيب " ، أي نصيب يرضى بالذي

أنا فيه الآن .
- النصيب الذي تعيشه يا عزيزي " أجيب نفسي " .
" تنفق الأم عشرين عاما لتجعل من ابنها رجلا ، ثم تأتي امرأة أخرى وتجعل منه أحمقا في عشرين دقيقة " ، أعجبتني تلك المقولة للشاعر الأمريكي روبرت فروست وأود لو أنه أمامي الآن وأسأله : ماذا لو أنها الأم هي من جاءت بتلك المرأة الأخرى لترى أن كل ما أنفقته صار سدى ، لعل دهشة ما أعيشه الآن جعلني أقتنع أن أسوء الأشياء حدوثا لنا تأتي من الأشياء التي لم نتوقع يوما أنها ستصبح مؤذية .
وقفت مع نفسي في شرفة الشقة التي أمضيت فيها أسوء لحظاتي وأنا أتملي وجها حقيقيا كوجه السماء الآن ، ربما نحتاج لمثل تلك الوقفات حين نقبل علي الحياة وحين نحاول أن ندبر أوجاعنا ونخلف خلفنا خرابا اشتهانا كثيرا ، أخرجت كلتا يداي من جيبي وأنا أحتضن نفسي ، أشعر بهذا الخواء الذي يتجهمني عادة في مثل هذا التوقيت من الكتابة ، خاصة أتذكر كل شيء في ترمشي وتنفسي ، لم يغادرني أبدا شيء من الشعور الذي سكنني طيلة الأربع سنوات الأخيرة التي أمضيها الآن مع أمي وشبحٍ سمحت له أن يعيش معي ضريبة أنني لا انسي ، ظللت أراقب حركات النجوم في انتظام وكيف أنها صامتة كإنصات الكتابة وصاخبة بوجوه من فارقونا ، أحيانا أدعي أن مسافة بخطوة سماء أقصر من فرسخ يبعدنا عن حبيب ، لا تتعجب ، مسافات الحنين كاذبة .
سيّان عندي كل شيء بعدك ، كل الأشياء متشابهة في روحها ووجودها ، هشة وجافة وهي تهش علي جروحي وحين أراها متواطئة مع ألمي ، كل الأشياء تقف بمحاذاة قلمي ، لا هي تجيء ولا هي تبتعد ، لا هي تقهر

تلك المسافة وتأتيني بكِ ولا هي تأخذكِ مسافة نسيانكِ ، ليس بوسع شيء أن يحسم ما بداخلي نحوكِ ، ليس كذبا أبدا أن أقول كل شيء دونك قاتل ومميت .

رغم هذا القلق الباذخ الذي يضرب بضراوة شراع أمالي ، إلا أن البحر الذي أعددته من أجلي تلك الغريبة أصبح يسوقني حيث تيار شهي ، لم تسألني حتى الآن ما أسمي ولا حتى أين أسكن ؟! .

كل ما تعرفه عني هو ماضي رجل انفق قلبه مع سيدة سواها و انتفض منتشيا في أحضان فراقها الضاري وظل يبكيها لأعوام دون أن يعرف عنها شيء ، وإصرارها الجسور على أن تأويني ، كان في إنصاتها لي شيء يثلج سواد الروح وينقح ما بلى في ذاكرتي ، وتعينني علي آذى الحياة وهي تُضيّع خلجات نفسي وتسكب فيّ ذاتًا ترن بروح جديدة في داخلي ، سيدة تصنع بداخلك هذا التمرد والتنمر لا شيء غير أن أمرك يعينها ، لكن ماذا لو كانت متزوجة برجلٍ غيري أو أنها في مكان ما يصعب علي شخص بظروفي البالية أن يصل إليه ، أو أنها بعمر يفوقني بكثير ، أنا الذي لا أعرف عنها شيء سوى أن الأسماء والأماكن وابتعادي يزعجونها .

نسيت أن أضيف ومتعلقة بحكاياتي .

ظللت في حضرة الليل حتى نشج الصباح شروقه علي وجهي ، وعدت حيث جهاز الحاسوب ، اعرف أنها تنتظرني الآن وربما تنتظر تفاصيلي فقط ، كما توقعت تماما ، أراها أمامي في الوضع الناشط وقد أرسلت لي رسالة كان متنها :

- صباح الخير يا باهي الطلّة .

- صباح النور يا ربة البهجة .

لمّا كان من شأن كرمه أن تقولها لي كنت اشعر وقتها بشعور مغاير ، ثمة كلمات نأخذ قيمتها ممن تفوّه بها فقط .
كلما أخذني ثقل شعوري نحو ما عشته سابقا أسمع بداخلي شيء يئنّ ويصرخ برتابة ألمي ، وتذكرت هذا التصلب الذي آلت إليه ذاكرتي ، عادتْ هي الأخرى بهذا الصباح وهي تسألني كيف كانت ليلتك ؟ ، أأقول لها كنتُ منشغلا تماما في إحصاء نكساتي وخيباتي وحماقاتي ، أنا المتعب حد الهزيمة لا قدرة لي علي إسعاد نفسي ولا حتى حزنها ، وحده الحزن يأتيني من حيث لا أحتسب .
- كانت ليلة تخمة بالأشباح . "أجبتها من تلقائي" .
- يا لحظ الأشباح بك ، كم أحسدها كثيرا الآن .
لما تسألني حتى أشباح من ولا حتى لماذا ، اكتفت أن تشع باندفاع بهذا الدفء ، يهمني جدا الفتاة التي لا تبحث عن الأسباب بل من تحققها .
استمرتْ تقتات معي الحديث حتى تساءلتْ :
- أ كان لقاؤكما أمام ضفة النهر عاديا ؟
ماذا تنتظرين من مجنونة في حضرة مجنون ؟
المجانين لا تُرفع عنهم الأقلام فقط ، بل يرفع عنهم التعب أيضا . .
انتشلتها لحظة أن انتهت من لبسها في عجالة ، وقعدنا حيث مقهى مجاور لضفة النهر وأنا أقول لها :
- معكِ لا ينفع سوى أن أكون مجنونا .
لم اهتم بما قاله صديقي وهممت قابضا كلتا يديها دون أن أمعن النظر لها طويلا ، ليس العيون وحدها من تتكلم الآن ، الأرواح تجيد ذلك كثيرا ، وارتشفت من يديها قُبلة تسد هذا العطش الداخلي ، وهمّت تسألني :

- ما أمر المفاجئة التي خلعت بها قلبي وأنت تنذرني بها ؟
تركت الهواء يعبر بيننا وهو يجبّلُ هامسا في جنبات روحي ، أنا وهي الآن علي طاولة واحدة ، أمام قدر واحدٍ ، قدر اجتبانا نحن فقط ، هذا الاستثناء المشوب بالحب هو ما لم تحجبه عيناها عني ، أخرجتُ من فوري المجلة ووضعتها في ملقى عينيها ، اعتلت شفتيها نغمة علي هيئة ابتسامة وهي تنظر نحوي مباشرة وتقترب بيديها نحو المجلة حتي أحكمتْ مسكها وبدأت تقرأ وكل فرحة ترسمها تحمل علي شفتيها منها شيئا نحوي ، تلك الإيماءات مطلوبة دائما ، تلك التفاصيل التي لاتزال حاضرة رغم غضاضتها وبخلها ، نظرت لي إبّان انتهائها من مقالي وهي تقول :
- أنت أجمل ما أنجبت لي الحياة .
بعثرتني تلك المجنونة ، أحرقتني في حرفيّ اللام والياء وهي تخصني لها وتقول "لي" ، ثمة كلمات لا تبرد إلا حين تستقر في القلب.
دعوتها أن نتمشى قليلا علي ضفاف النهر وأنا أقول لها :
- تعالي نضيف للحياة شيئا ، ولو بعض خطوات .
تشابكت أصابعنا دون خلاص ، ومشينا ونحن نجرّ أحلامنا وأيامنا وأنفاسنا وكل فعل مؤجل لم يأخذ حظه بيننا إلي الآن ، كانت تكفيني تلك الخطوات حتى أنهم شفتيها لمرة أخرى ، لم يكن هذا الغروب ليكتمل إلا بمثل تلك القبلة ، لم تكن لتودع الشمس هذا الفضاء إلا وهي شاهدة علي هذا الامتلاء .
كنت سأسهلها ما الذي تشعرين به بعد كل قُبلة منحتها لنا الحياة ، حتي سبقتني هي وهي تتمتم :
- اشعر بسعادة مشوبة بالعطاءِ .

لم أكن يوما أرام علي شيء بسذاجة قُبلة ، ولا أن أجد تعبا يزدلف في أطرافي كالذي يلجّ في روحي الآن .
لم يخذلني حظي أبدا وإن كنت أراه يكبر كنمو طفل ليس في تباطؤ وإنما في تواطؤ مع السنن الكونية للنمو .
فضحت لها يومها سبب الندبة التي تقع أسفل حاجبي يوم كنت مسافرا في رحلة مع صديق لي يدعى "وائل" ، وقد قُدر لنا بلوغ فندق أمام ملعب لكرة القدم ، وفي إحدى المرات التي خرجت بها معه نادى علينا إحدى الشبّان من بهو الملعب وهما يطلبون منا أن نشاطرهم هذه المبارة حتي يكتمل نصاب الفريق من حيث عدد اللاعبين ، لم أكن لارفض عرضا كهذا وأنا التواق لتلك الرياضة ، ووافق وائل علي مضض وهو يقول لي لم نقطع كل تلك المسافة لأرهق نفسي في مبارة تافهة كتلك ، بدت لي هذه القصة كأنني أعيشها الآن حتي لحظة تسجيلي هدف المبارة الأول والجميع يصرخون بصوت واحد "أحسنت" ، ومرت المبارة كاملة ونحن فائزون بالهدف الوحيد الذي سجلته ، وخرجنا وقتها أنا ووائل الذي أنهكه اللعب وهو متذمر ويلعنني ويلعن تلك الكرة حتي عدنا للفندق مرة أخرى ، فتعود كرمه من ذاتها لتسألني :
- أ كانت الندبة في تلك المبارة ؟
وهي لا تعلم أنه لا علاقة لتلك المبارة بالندبة وإنما كبرتُ بها ، أخبرتها مبتسما : لا ، فتصرخ وهي تضحك وتقول :
- مجنووووووون . . . لك الله يصبرني .
فقامتْ تضع لي قُبلة فوقها وهي تحاول إقناعي أنها ستختفي الآن ، قُبْلتَها تلك لم تُخفي تلك الندبة فحسب وإنما أخفت جراحي التي لكم تلقيتها من

طعنات الحياة .
ثمة ندبات تحتاج فقط للكثير من الحب لتختفي .
اشتعل المساء بفيض ظلامه ، ورن في خاطري هاجسا أن ادعوها لأن ترقص معي ، فتتملص بحجة أنها لا تعرف ، وكيف لنا أن نرقص دون موسيقي ، وأنا لازلت ملحّا بتلك الفكرة وأنا أقول لها :
- لا تجعلي الموسيقي تحركك ، امتصي هذا الجنون بداخلي وارقصي .
تدور هي وأنا ممسك بأطراف أصابعها وبراعم روحها ، تقترب مني حتى ذاك الاشتهاء الذي يحثنا لقبلة ، وتبتعد مسافة ذراعي وأنا أجذبها حولي ، وأغمسها في حضني بنصف اقتراب وأنا أقول لها :
- انتبهي حتى لا تطئي قدمي .
همستْ وقتها في أذني :
- من قال أننا بأقدام الآن .
ظللنا نرقص كمحاربين يتراشقان بموسيقي النجوم ويتنهدان بهواء المجرة كله ، من قال أن الوقت كان يتسع لتلك الرقصة ، فعلناه نحن تحت مظلة الأبدية . . مازالت رائحتها متأصلة في أنفاسي .
رأيتْ يومها أبعاد روحي .
أخذتني بعد رقصتنا تلك حيث إحدى النواعير المطلة علي النهر وهي تطلب مني النظر إلي سطح الماء وتخبرني عن أسطورة السماء المقلوبة ، وكيف كاد أن يلقي الكثير من العشاق حتفهم وهم يحدقون فيها حتي يجذبهم سحر الماء إلي القاع ، وهم عالقين في أجسادهم حتي تأتي جنيّة الماء وتنقذهم من هذا السقوط وتعيدهم إلي البر مرة أخرى ، ويروون لذويهم كل ما شاهدوه في الأسفل ، وكيف شاهد الغارق منهم أبعاد روحه وهي تتراقص

مع كل شيء اشتهته دون أن تجده في الحياة ، ويظنون أن الجنّية وقتذاك لا تنقذهم وإنما تُلقي بهم في غصص الحياة إذ لا جدوى من حياة لم ننتصر فيها علي شيء .

أعدتها يومها إلي البيت في ساعة متأخرة ، ودعتها وقد خاب هذا التماسك فيني أن أقاومها ، لقنتها قُبلة تشيء بهذا الغرام الداخلي وأنا ممتن بهذا العمر الذي قضيته في يوم واحد .

بدأتُ أفيق كل يوم وأنا في هذا التصور الغريب من أن يجيء يوم وهي ليست معي وأنا أردد داخلي لن أدع شيء كهذا يحدث ولو كلفني هذا دمائي ، الم تخبرني هي أنه لا جدوى من حياة لم ننتصر فيها علي شيء ، كذلك لا جدوى من انتصار لم نكابد نحن في سبيله .

بعد عدة أسابيع من عملي المؤقت بتلك المجلة عرضت عليّ إحدى الصحف القومية العمل كمراسل لها في قطاع مدينة حماة ، ربما بهذا العمل لن يمر عام واحد فقط إلا وكرمه ستكون في بيتي ، كان هذا الخبر بوابة النهوض الحقيقة إلي بر الأمان ، ذهبت يومها للأستاذ محمود الأمين وأنا أودعه وأشكره علي المدة التي قضيتها في رعايته وهو يحتضن قلمي ، قال لي يومها :

- أنت مقبل علي مجد حقيقي ، إذا أردت أن تستمر في تحقيقه تعلم فقط متى ينبغي أن تكتب ومتى يتحتم عليك إسكات قلمك .

كان يريد أن يخبرني أن الجرائد القومية لا تقضي أبدا حاجة الكتابة وإنما حاجة الدولة ، ومتى أردت أن أستمر في مثل هذا العمل عليّ أن أكتب ما يريدون ليس تماما ما أراه ، فرجال الدولة غالبا ما يشاهدون كل ما يحدث من خلال أواعيهم المرفهة ويجدون في إنكار الواقع سبيلا حقيقا لاستمرار

مكانتهم الوظيفية دون أن يعنيهم حقيقة ما يحدث .
التحقت للعمل بالصحيفة التي لم يستمر العمل بها طويلا وإنما دام قرابة الشهرين فقط ، حقيقة لم اظفر إلي العمل الصحفي كي لا أوالي سوى ضميري ، فمع أول مقالتي التي تناولت ما يعانيه ضواحي قريتي المهمشين وعن المآسي التي تلتصق بهم ولا تفارقهم أبدا ، وعن ضيفهم القبيح السيد "فقر" ، بدؤوا وقتها يأخذون كل ما أكتبه ويقومون باقتصاص ما لا يعنيهم نشره ونشر ما يحط في قائمة رغباتهم فقط حتي أذهل في كل مرة أن المقال الذي كان يعج بالحقيقة لم يعلن منه سوى القشور التي لا تمت للواقع بصله ، وفي أحدي أيام أسابيعي الأخيرة هناك طلبت رؤيتي وقتها رئيسة تحرير الصحيفة الأستاذة أصفاد كامل ، كانت تلك مرتي الأول التي أقابلها فيها .
كانت في انتظاري حين أقبلتُ عليها وهي جالسة في مكتبها مرتدية نظارة قراءة وأمامها الكثير من الأوراق مرتبة بشكل فوضوي ماسكة في يدها اليمنى قلم تحديد ، حين اقتربت من عنق المكتب أشارت بيدها أجلس ، ما لبثت أن جلست حتى خلعت نظارتها وهي تبتسم بشكل غير صادق ، وتقول : تشرفنا . . ، ابتسمت وأنا أطأطئ رأسي متقبلا كلمة لا تعنيها ، بعدها سألتني :
- أ يرضيك منظر كل تلك الأوراق التي أمامي الآن ؟
- لا أفهم ما تعنيه سيدتي .
رفعت إحدى الأوراق في وجهي ، تبين لي من عنوان الورقة أنها مقالا لي كتبته منذ فترة ، وقتها أدركت كل ما ترمي إليه وكذلك سبب استدعائها لي ، لم تدع لي فرصة الرد حتي استطردتْ وقتها :
- تذكرني حماستك تلك بزميل لي حين بدأ مشاريعه بالكتابة تحت الإطار

الذي تخوضه الآن ، أتدري لو أنه واكب معطيات عصره لكان الآن يترأس أكبر الجرائد الوطنية لكنه ظن كل ما يفعله آنذاك صوابا ، أذكر أنه ضحى بكل حقوقه من أجل واقع فُرض سطوته بداية ، ربما زجّ بنفسه الآن في مجلة شبابية لا يقرأها أحد غيره أظنك تعرف محمود الأمين تعرف هذا الاسم جيدا .

لا أدري أكان في لكنتها تهديدا أم نصيحة ، لكنني عرفت الآن سبب ما كان يقوله لي الأستاذ بشأن الحياة التي قضت عليه حين راهن بقلمه في سبيل ما يريد وكذلك كلماته الأخيرة لي حين أوصاني ألا أقع بخطأ ارتكبه هو يوما في حق نفسه . قلت لها :

- قرأت مرة أن قول الحقيقة يحتاج لشخصين الأول يقولها والثاني يسمعها ، هذا ما يكفيني . أنا لا أكتب حتي يقرأ الكثيرون بل ليرضى عني من يقرأ . .

قاطعتني وقتها وهي وتهز رأسها وترتدي نظراتها مرة أخرى :

- اختصرت الكثير بكلامك الآن يمكنك الانصراف .

لم اشعر بنفسي إلا وأنا واقف أمام مكتب الأستاذ محمود الأمين طالبا الدخول إليه ، قابلني وقتها رغم المؤتمر المقرر عقده بعد نصف ساعة من الآن ، أذن لي بالدخول ومن ثم سألني :

- ما بك ؟

نظرت إلي عينيه مباشرة وأنا أقول :

- كنت تعلم أن السيدة أصفاد رئيسة التحرير . . !

- كأنك تنكأ جرحا قديما لدي .

من ثم أستطرد :

لم نكن مجرد زميلي عمل . . تنهد عميقا فيما يتذكر ثم تابع :

أصفاد زوجتي السابقة .
صحت لا إراديا :
- نعم . . !!
- لم أكن أحب الحديث بشأن هذا الموضوع ، يبدو جرحا عتيقا لدي لكن لا بأس .
صهرتنا علاقة حب منذ كنا في الجامعة ، وتخرجنا وكل منا يرى في الآخر ملاذه الأخير ، كانت مشتعلة بأثير أحلامها الذي لا ينتهي وهذا ما أثار فضولي نحوها ، أكثر ما يغري الرجال أحلام النساء ، كانت تحب دائما بلوغ سقف الأشياء ، طموحة ، ويكفي أنها كانت تحبني ، تقدمتُ إليها بعدما التحقنا بجريدة عملنا سويا في الملحق الاقتصادي بها ، تزوجتها ونحن نحدق بنظرة الحنان التي لم تجف بيننا يوما حتي يبس كل شيء بعد إحدى المؤتمرات الاقتصادية التي عقدتها البلاد لمناقشة البطالة والإحصائيات الكاذبة التي تداولها الكثيرون ، لم أرضى وقتها حيث دأبت علي جمع كل المعلومات التي تكفي لإثبات الكارثة التي كادت أن تتحقق آنذاك ، لم تكن أصفاد تعلم بشأن ما كنت مقدم عليه ، كنت أعلم أنها ستمنعني ليس تخاذلا منها لكشف الحقيقة وإنما خوفا لما سيترتب بعد ذلك .
المهم . . ، بعدما قدمت كل الثبوتيات استدعاني يومها رئيس التحرير يبشرني باستغنائهم المفاجئ عني وعن زوجتي ، لم أستطع وقتها أن أخبر أصفاد بالأمر خصوصا وأننا كنا في بداية زواجنا وليس ثمة ما نستعين به علي الحياة سوى العمل في تلك الصحيفة ، حتى صبيحة اليوم التالي وهي ترتدي ثيابها استعدادا للنزول أخبرتها بنفسي ، لم تتوقف المشكلة عند هذا الحد فقط وإنما مُنعنا من العمل في كل الصحف الأخرى فجميعها منظومة متواطئة

مع بعضها البعض ، سوّدت الأيام أمامنا ولم يكن هنالك من خيار آخر نصل إليه سوى الطلاق لتستمر هي بالعمل وتثبت لأي صحيفة تتقدم إليها أنها لا علاقة لها بي .

عملتْ أصفاد بعدها في الجريدة ذاتها والتي تترأسها الآن ، وظللتُ أكابد حتي فكرت للعمل بأسماء أخرى غير أسمي الذي شُطب آنذاك لفترة طويلة ومن ثم جاءت لي مؤخرا فكرة المجلة الشبابية التي أنشأتها منذ أعوام قليلة .

بعد ترأس أصفاد مباشرة للصحيفة عرضت عليّ العمل معها لكنني رفضت ، لا يمكنني أن أتعامل معها علي أنها زميلة فقط .

برغم علاقاتي النسائية التي استمرت لخمسة عشر عام بعدها إلا أن قلبي لم يتزوج غيرها إلي الآن كنت أفعل معهن ما يريده جسدي فحسب .

مازلت محتفظا بأبعاد جسمها وهي بين ضلوعي ، مازال ظلها المارق داخلي يطاردني دون هوادة .

تزوجتْ بعد طلاقنا بعام من رئيس الصحيفة آنذاك وأنجبت منه طفلتين وتوفي زوجها من عامين ، ذهبت في عزاءه ورأيتها يومها ترتدي حداده في زيها الأسود ولم أقابلها من يومها .

اتصلت عليّ قبيل عملك لديها بأسبوع ، ظننتُ أنها كانت تريدني في أمر يخصنا إلا أنني كنت مخطئا ، كانت تسألني بشأن الكتّاب المميزين لدي حيث رشحتك للعمل معها ، أهذا ما جئت لأجله . . ؟

- لقد طلبتْ أن تقابلني اليوم حيث احتدم الحوار بيننا وآلا إلي إنهاء عملي لديها .

- لا عليك يا بني يمكنك أن تعود من الآن للعمل هنا ، كما كنت .

أنهيت الحديث معه حيث قال قبيل خروجي :
- كل ما فينا من طين إلا هذا القلب . . من حنين

العلامه الخامسة

وكأنها الأخيرة....

سأدع هذا الفراغ يكملني
لا مزيد من البكاء . . لا مزيد من الشوق .
عطشي إلي لحظة رائعة عشتها ولم تستمر ، وإلي قلم لم يتفقد حاجة الكلمة في الحرية وإلي ذاتٍ شملني وبعثرني بطرفة حلم .
هزمني الحب في أول طريق أعبره إلي سراديب الروح ، صفعني كمن يحاول أن يهذب طفل على خطأ لم يستطع أن يقاومه ، وأسمع صوته دائما في رئتي يتلجلج وينسخ نفسه ليقهر رغبتي فيه .
منذ أن حاولت إعادة كتابة ما عشته دون أن يمسني حرج الاعتراف أو يخنقني مداد الكلمة وهي تحوطني من كل جهة ، قررت أن أطلق قصاصة الرحمة ، كنت أعرف أنني أكتب فتاة دوائية بوسعها أن تضع حدا مرضيا للنص الذي تُذكر فيه ، وأن تعالج حاجة الحرف لأنفاسها وهي تتنفس في كل كلمة ، قد تجدين إصراري في الكتابة نابع من حاجتي لها كما كنت مصرّ علي حبكِ حتي نفاذ القدر ، حتي وأنتِ تقولين لي " قدومك كان نجاتي " لم أشعر وقتها بضعفك بل أحسست حينها أننا نقوى معا ، حتي وأنا أرد عليكِ وقتها " قدومكِ كان ولادتي " ، ألا تذكريني رسالتي الأولى حين أخبرتكِ أنني لم أكن قبلك كانت تلك نصف الحقيقة كان عليّ أن أكتب وكذلك لن أكون بعدك ، ظننت أن السنين التي توالينا لن تنقلب علينا يوما ، كان غبائي أنني اعتمدت علي حظي ولم أؤمن بدورة القدر ، لم أؤمن بالسكين إلا وأنا أراها واهية علي عنق يدي تغتال الحياة في عروقي ، لم يكن فراقكِ موتا بل كان سلسلة عذابات متتابعة تشبه في قدومها دويّ الموت .

كل لحظة حنين ينبع بداخلها موت مبكر ، اعني أننا نقترب من الموت حين نشعر بالحنين ليس بالضرورة موت الروح وإنما موت الكبرياء .
لا أذكر من اخبرني أن قصص الحب كي تكتمل تحتاج للكثير من الحظ ، ولا أمانع أيضا أن أقول أنها تحتاج لذات الاشتهاء الذي غمرهم في البداية أن يستمر دون خسران .
لم يكن كافيا أن أقدر ثمن المأساة التي أعيشها ببضع حروف وكل أصابعي مجروحة ، علي عكس ما كنت انشده في زمن كنتِ فيه أعز ما أملك لتكوني الآن أكبر ما فقدت ، لم يتعمق رحيلكِ داخلي وإنما ظفر ملتويا يقرضني جزءا جزءا ، وأطبقني كقطعة علكة تتمايل تحت ناب الدنيا وضرس الظروف. .
أوشكتُ حقا علي الانقراض .
أصبحت لا أملك حيال ما أراه من الفتاة التي ضجت متشبثة بنا شيء ، كلما مضيت معها وأنا اسرد ما أعيشه معكِ تقترب مني أكثر ، حتي باتت هي تذكرني بكِ ، ما إن أنتهي من الحديث عنكِ حتي تهمّ تسألني : ماذا لو جدت من يحبك أكثر منها ، ألن تمنح قلبك فرصة الحب مرة أخرى ، انفض رمادها عن قلبك و أضرم نار الحب في قلب آخر .
قد لا أستطيع تجاوزكِ لكنني سأحاول .
عندما عدت اليوم للشقة واصلت للفتاة التي لاتزال ترتدي قناع المجهول إلي سبب فراقنا لم تكن جازمة أن قصة كتلك سيكون فراقها في مقصلة القدر ضاريا بهذا الشكل .
كل ما أذكره في تلك الفترة أن الأستاذ محمود أتصل بي واستدعاني يومها لأمر في غاية الضرورة ، حينما وصلت إليه وأنا اجر الخطى من هول ما كانت رغبته لحضوري في أوجّها ، دخلتْ عليه لأراه مبتسما علي غير عادةٍ

وهو يقول :
- أبشر ، لقد عدت للعمل مرة أخرى لدى أصفاد .
لمعت في عيني السعادة بهذا الخبر ، قلتُ له مبتسما :
- وما الجديد يا ترى ؟
أجاب مستطردا :
"- قابلتها في المؤتمر الذي عُقد بعد أخر مرة كنت فيها هنا ، كان الاجتماع لمرؤوسي الجرائد بشأن الثورات التي اندلعت في تونس ومصر ، حين انتهى المؤتمر توجهت نحوها وحييتها ومن ثم سألتها إن كان بالإمكان احتساء مشروبا في مقهى مجاور لمبنى المؤتمر ، لم تمانع حيث اصطحبتها وحينما وصلنا مباشرة للمقهى أخبرتها بشأنك وعن سبب رفدها المفاجئ لك ، لم تشأ أن تتكلم في هذا الموضوع ، وبعدما جاء النادل طلبت لها عصير البرتقال خفيف السكر وكأس قهوة لي ، وقتها نظرت لي مشدوهة وهي تقول :
- أمازلت تذكر مشروبي المفضل .
- لم أنساكِ يوما .
بعد وجبة التحديق التي تنمّ عما بداخلي ، قلتُ لها :

في ساحة الحب الكبرى
ونحن نراقب شوفان الشمس
ونرقص عند انزلاق الصباح
أقول : لا تدعي الصباح يمر دوننا
وكيف نجتاز مطر الرحيل بقبلة
ودعي الطيور تغني في مرتها الأولى
واقضمي تفاح ضلعي كي تولدين

وغني بجنون الجاردينيا
في ساحة الحب الكبرى

لم أنتبه سوى لدموعها وهي تتهاوي ، قمت من مكاني وأنا أضعها في حضني ودمعها يسقط علي صدري ويحيي بلجّته قلبي قلت لها :

- أما زلتي تذكرين هذه القصيدة .

مسحت بمنديلها شيء من دموعها ، ورفعت رأسها من فوق صدري وهي تشهق باكية كطفلة وتقول :

- كأنه قدري أن أتزوجك بعد كل مرة تقول فيها هذه القصيدة .

واتفقنا علي أن يكون زواجنا رأس الشهر القادم ، ووعدتني أن تعود للعمل معها بداية من الغد . ‘‘

- سعيدٌ جدا بهذا الخبر .

ودعته يومها وأنا أقول له :

- يبدو أن القدر لا يقدم لنا ذات الشيء بنفس الطريقة وهذا ما يجعلنا مؤمنين دائما .

تزوج الأستاذ محمود من السيدة أصفاد ، ويوم عرسهما حضرت أنا وكرمه ، كان يوما غير عاديا ، فسعادة الأستاذ محمود يومها توشي بقيمة الحب التي أدخرها لأعوام لتلك السيدة ، لكزت وقتها كرمه وأنا أهمس لها باسما :

- مستعدة أنتي لتلك الليلة .

أدارت وجهها وعلى شفتيها نصف ضحكة ، كتلك التي تظهر الآن جالية في وجه السيدة أصفاد ، يصبح شعور المرأة ليلتها شعورا يصنع علاقة تكافؤ بين الرغبة والخوف .

كثيرا ما حاولت أن أخبركِ بطريقة وبأخرى أنني لا أنتظركِ عروسا فقط ،

وإنما زوجة حقيقية إذ ليس كل عرس يصنع زواجا حقيقيا ، انتظرت أن نصنع توائما دفين ، أن نستيقظ من فوق وسادة واحدة وكل منا يرى في الأخرى صباحه ، أن تكونين أول من تقع عيني عليها وأنا أقول لها : صباح الخير يا ملاكي ، فتقولين في تكاسل مغمص : كم الساعة الآن ، فأمسك إحدى يديكِ وأضعها فوق صدري وأنا أقول : تعالي نحسبها معا : دقة ، دقيقتين ، فتبتسمين لتقولين : مثنى دقة دقتين ، فأضع يدي فوق وجهكِ لأرفع جديلة متدلية فوقه وأنا أقول : لا عليكِ من اللغة الآن ، نحن نحسب الوقت وليس الحروف ، فتناضلين وأنتي تقاومين الفراش : يكيفنا كسل سأعد لك فطورك ، لكنني تناولته قبل قليل ، فتوسطين يدكِ في خصرك في تذمر : من غيري ، فانهض وأنا أقترب نحوك : لا بل كان عليكِ .

أين أهرب منكِ ، وكُلّي لديكِ .

كنت أبحث فيها عن وطني حين بدأت الثورة تضج أرجاء الوطن بداية في درعا وحتى حماة ، ولا أزال أذكر هذه الأيام نكاية عن الجراح التي تشمل ذاكرتي كذلك وأنا أقول لها : " الوطن غاضب يا كرمه ، الوطن لا يريد لنا أن نكون معا في سلام " .

بدأت الثورة تجتاح كل شيء في طريقها إلينا ، ولم يكن ثمة من خيار تتخذه العائلة سوى النزوح إلي مصر عن طريق لبنان ، لم يكن هذا خيارنا فقط بل كان مصير الكثيرين حولنا وما خلا ذلك يعد انتحارا ، الكل يرى أن الوطن صار يحتضر ، الوطن لا يبوح بكل شيء في هذا الوقت ، موجع أن نُقتل في الوطن . . موجع جدا .

معضلة الأمر أن عائلة كرمة رفضت النزوح معنا إلي مصر ، وجدت أن المكوث في الوطن هو الحل ، وعندما علمت بالأمر توجهت نحو بيتها مباشرة وأنا

لاهث الخطى وأطرق الباب بعنف ، حين فتحت لي كرمه وجدت كل من السيد قاسم وكارولين وكذلك السيدة رفيدة في وسط ردهة البيت وحولهم فوضى عارمة ، بعدما دخلت توجهت نحو السيدة رفيدة وأنا أقول لها :

- يمكننا تخطي الأمر جميعا ، فقط تعالوا معنا . .

قاطعني السيد قاسم وهو يقول لي بانفعال :

- أي أمر يمكننا أن نتخطاه ، أن نترك الوطن دون رجعه ، أم نصبح مجرد أجساد تنعم بالحياة دون هوية ، لا يمكننا أن نترك هذا الوطن أبدا ، لا يمكننا أن تسري في عروقنا حياة جُلبت إلينا من أرض أخرى ، يمكنك الرحيل وحدك . .

تصلب جسدي من فيض العاطفة التي آوتني في كلامه ، لم أستطع الرد عليه ، ولا حتي النظر إليه لم أنظر سوى لكرمه وقتها وأنا أقول لها :

- أ هذا قرارك يا كرمه ، ألست وطنك أيضا ، ألا تنتمين لي أكثر من هذه الأرض . .

نظرت لي كرمه وهي تبكي ، غمرتها دموعها كثيرا ، وركضت أمامهم في حضني وصدرها يشهق بالبكاء وكلماتها تتقطع :

- لا أستطيع ، أنا آسفة ، آسفة ، آسفة ، لا أستطيع أن اتركهم ، لا أستطيع ، كيف أعيش هانئة وهم تحت القصف ، أذهب أنت ، أعدك ألا يمسني غيرك ، وأن أموت متبتلة لك فقط . .

أصبح الوقت يداهمني كثيرا ، وأنا في نزاع محتد بين عاطفتي و عائلتي ، وحتى هي سقطت في ذات الجب الذي أنا فيه لكنها اختارت العائلة ، اختارت أن تظل في غياهب الوطن تستجدي في وضوحه وغموضه ظلال الذاكرة .

أليس من الخزي أن نفترق بعد كل هذا الحب ، لأجل من افترقنا ، لأجل الكرامة ونحن نواجه الموت ، أم الكرامة ونحن نجابه الحياة ، لقد ضيعتك يا كرمه في أرض ضائعة ، وتركتيني حين كان بالإمكان ألا يفرقنا شيء ، أنا لم اترك الوطن رهبة الموت ، فالموت لا يخطئ أحد ولا يختار أرض يقيم فيها عن سواها ، أردت أن ننجو فقط ، ننجو بالحب من هذا الخراب ، من هذا الدمار الذي يدرك كل شيء ، من هذا البارود ، من هذه الحرب التي تجتاح القلوب قبل اليابسة ، من هذا الخوف والذعر والارتعاد ، هنا الموت قد أعد مضماره في الأفئدة ، رحلت لأنني لا أريد المزيد من الدماء ، ولأن السلاح الحقيقي ليس من يقتل فينا الجسد بل الفكر .

لم أعطها قبلة النهاية ولم ألقنها وصيتنا الأخير ، كان الرحيل مباغتا ، أقلتنا حافلة ضخمة إلي حمص والتي من خلالها سنعبر الحدود اللبنانية بشكل سري ، جلست بجوار جدي والذي كان يراقب كل شيء بصمت حتي كسر سكوته وهو يدندن تهويدة موجعة ويبكي بصوت مرتفع ، كانت تلك المرة التي أراه فيها يبكي بهذا الشكل ، سيلا من دموعه تحتضر في عيناه ، وبعد ساعة من خروجنا اعترض طريقنا مجموعة من الملثمين وهم يفتحون أعيرة الرصاص علي الحافلة بشكل عشوائي محاولين عرقلة سير الحافلة إلي حمص أصيب خلالها الكثير من عائلتي و مات جراها جدي ، مات ولا تزال بقايا التهويدة عالقة علي شفتيه ، لم نستطع دفنه إلا حينما وصلنا حمص علي قرابة النصف ساعة من الحدود ، لم نستطع إسعاف معظم الحالات المصابة بسبب قلة المواد الطبية حيث ماتوا نازفين دمائهم ، ماتوا أحرارا .

لم يكن الموت يلاحقنا فحسب بل الذاكرة أيضا ، يومها حمدت الله أن كرمه لم تكن معي ، لم أكن لأطيق أبدا أن يلحقها مكروه أمامي ، وصلت أنا وأمي

وبعض الناجين إلي حمص والتي من خلالها توجهنا إلي القصير ومنها إلي الحدود لبنان حيث قضينا ليلتين في مدينة الهرمل اللبنانية قاطعين مسافة كبيرة قبيل توجهنا إلي مطار بيروت قاصدين القاهرة ، تمكنت أنا وأمي من الوصول إلي القاهرة بعد الكثير من المعرقلات التي قُبلت بإنسانية كبيرة ، علمت من خلال صديقي وائل الذي أصرّ هو الآخر المكوث في الوطن هو وعائلته أن كرمه تركت البيت بعد وفات السيد قاسم حين ألقى حتفه علي يد إحدى الجماعات المخرّبة ، وعلمت منه أيضا أنه كان من الرجال التي قادت الثورة وكان مطلوبا لدي أكثر من جهة .

أوكلتُ لوائل مهمة أن يطمئن كرمة عليّ وأن يخبرها أنني وصلت إلي مصر وأنني بأفضل حال ، وأعطيته يومها بريدي الإلكتروني حتي يستطع التواصل معي أثناء تلك الفترة التي سأقضيها هنا ، ومن يومها لا أنا أعرف عنها شيء ولا حتي عن وائل ، أربع سنوات إلي الآن وأنا أتملى روحها في قلبي ، أصبحت علاقتي بالسنين كعلاقتي بالرياح أينما تهب تحمل معها الذكريات الخفيفة التي لا تُنسى ، من قال أن الزمن بوسعه أن يمحي فينا شيء ، الزمن يعتق فينا الأشياء حتي تصبح جزءا لا يتجزأ منا .

تريد أن تنسى ، قاوم الوقت فقط . .

انتهت الحكاية . . وبدأ معها نزيف آخر ، نزيف ربما يتوقف بعدما نكئت جرحه أمام الفتاة التي ظلت صابرة حتي آخر حرف ، لم أعد أسمع ذلك الإيقاع الذي لازمني طيلة السنوات الأربعة الأخيرة ، كأنما القوقعة التي غفيت فوق أذني لسنوات سقطت مع نهاية القصة ، وما عاد لنحيب البحر في قلبي مكان ، فلقد تلقيت منذ يومين رسالة بريدية من الأستاذ محمود الذي يخبرني أنه قد استقر بفرنسا هو والسيدة أصفاد وقد قررا إنشاء

أول مجلة عربية سورية هناك وعرض عليّ العمل معهما في تقصي أخبار السوريين النازحين في مصر أمام مقابل مادي جيد ، شكرته كثيرا لأنه لم ينساني إلي الآن وأعربت له عن امتناني وسألني عن كرمه وأوجزت له ما قد صار وهو يقول لي :

- أتذكر حين قلت أن القدر لا يقدم ذات الأشياء بنفس الطريقة ، كن مؤمنا فقط ، مؤمن أنها ستأتيك مهما تأخرت ومهما تغيرت .

هذه المرة أنا أكتبكِ كما لم أكتبكِ من قبل ، لأنني موقن أن الأشياء التي نكتبها تشبه في وقعها عقابا داخليا .

سأقول بأنني مطّل أمام كل الحروف ولا أرى منها سوى الألف والحاء والباء والكاف ، ولا رغبة لدي سوى أن أكتب أسمكِ بعدها ، إلتقيتك ذات اشتهاء هنا علي صدر ورقة وأنا ممتلئ بالأحلام الواعدة ، وأهمس في أذن حروفي خِلسة ألا اكتب سواكِ ولا أقدس غيرك ، وأسرح كل ليلة في أفلاك الفضاء وأنا أقول لنفسي : كيف لا نلتقي ونحن تحت عتبة قدر واحد وسماء واحدة .

بعدما أدركت الغريبة كل حكايتي مع كرمه علمتْ أن دورها انتهى عند هذا الحد ، لقد مكثتْ عمر قصتي والآن لم يعد لها ضرورة للبقاء ، لقد شرعت نافذة الاعتراف بداخلي وهي موقنة أن سواد اليأس قد غمره طيف الأمل ، وأنني عزفت عن ألام سكنتني لأعوام ، لقد عاشت معي لأسابيع كما لو أنها تدرك أن اشتهاء الاعتراف يحتاج إلي طمأنينة التلقي ، ربما كان لها أثر الطب النفسي وهي تصغي بقلبها حيث كل حدث أحبته معي وكرهته معي وحزنتْ به من أجلي وفرحتْ أيضا لأجلي ، قلت لها في آخر يوم وأنا أتحدث معها :

- ألا تزالين مصرّه علي إخفاء اسمك . . ؟

- لا ، لست مصرّه ، بإمكانك معرفته الآن ومعرفة الكثير أيضا .
- جيد وما هو أسمك . . ؟
- أنا كرمه .

بدأت..
٢٠١٥/٩/٢٨
إبراهيم حامد

للتواصل مع الكاتب

FB.com/profile.php?id=100002945000149

تقييمك للكتاب

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

.....

بتكتب روايات .. قصص .. شعر أو مقالات
بتكتب عربي أو انجليش ..
أو حتي بترسم .. تواصل معانا و هنساعدك
تلاقي مكان لابداعاتك

تواصل معنا:-
٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١
website : www.fasla.org
E-mail :- Fasla.Pub@Gmail.com
FB: فصلة للنشر والتوزيع -Fasla
Publishing